اليوم الآخر

عناصر الموضوع

مفهوم اليوم الآخر	١٥٦
اليوم الآخر في الاستعمال القرآني	١٥٧
أسماء اليوم الآخر	١٥٨
أوصاف اليوم الآخر	١٦٣
الأدلة القرآنية على البعث بعد الموت	١٧٠
أبرز أحداث اليوم الآخر	١٩٠
المآل والمصير	٢١٤

مفهوم اليوم الآخر

أولًا: المعنى اللغوي

بداية لا بد من إعطاء معنى لغوي للفظتي: (اليوم) و(الآخر)؛ لكون مصطلح الدراسة مركب منهما، وذلك بالرجوع إلى معجمات اللغة.

اليوم لغةً: تدور دلالة اليوم غالبًا في المعجمات اللغوية على الزمن المقيد أو المطلق، فالياء والواو والميم: كلمةٌ واحدةٌ، هي اليوم المعروف، وهو غالبًا عند العرب في كلامها يدل على النهار من طلوع الشمس إلى غروبها، وقد تطلقه على الليل والنهار كليهما. وقد يستعمل اليوم في اللغة للدلالة على مطلق من الزمان أي: الوقت الحاضر من الزمان[١]. وقد يراد به «الوقت مطلقًا، ومنه الحديث: (تلك أيام الهرج)[٢] أي: وقته»[٣]. ومن معاني اليوم لغة أيضًا: الدهر، ويستعمل أيضًا بمعنى: الدولة وزمن الولايات، وبمعنى: الوقائع. ويستعار عند العرب للشدة والأمر العظيم[٤].

الآخِر لغةً: خلاف الأول والمتقدم ونقيضهما، وهو من الفعل أخرته فتأخر، يقال: جاء آخرًا، أي: أخيرًا، والجمع: أواخر، والآخر من أسماء الله تعالى قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

والآخِر: هو الباقي بعد فناء خلقه كله الذي ليس بعده شيءٌ[٥].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

فقد تطور من معناه اللغوي وأخذ منه في معنى مناسب له في الكلام. ولليوم الآخر تعريفات عدة عند العلماء متقاربة.

ويمكن تعريفه بأنه اليوم الذي يبعث الناس فيه للحساب والجزاء، وسمي بذلك؛ لأنه آخر انقراض الدنيا وآخر أيامها ولا يوم بعده، فهو آخر الأوقات المحدودة الذي لا حد للوقت بعده[٦].

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٤٦٣، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٦٤٩.
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الفتن، باب النهي عن السعي في الفتنة، رقم ٤٢٥٨، ٦/ ٣١٤.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٦٤٩.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٤/ ١٤٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٥٩.
(٥) انظر: تهذيب اللغة ٧/ ٢٢٧، تاج العروس ١٠/ ٣٤.
(٦) انظر: العقد الثمين في شرح أحاديث أصول الدين، حسين بن غنام، ص ٥٧.

اليوم الآخر في الاستعمال القرآني

ورد (اليوم الآخر) في القرآن الكريم(٢٨) مرة [١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اليوم الآخر	٢٨	﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة:١٨]

اليوم: اسم لما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والآخر: خلاف الأول وبعده، و(اليوم الآخر) في الاستعمال القرآني: اسم يطلق على يوم القيامة، ولم يخرج في الاستعمال القرآني عن هذا المعنى [٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٢١، ص٧٧٥-٧٨٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الهمزة ص٣٤-٣٥، باب الياء ص١٤٤٢-١٤٤٨.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ٤١٣-٤٢١، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٦٣٦، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٣٥٩-٣٦٠.

أسماء اليوم الآخر

للإحاطة بدلالة اليوم الآخر في التعبير القرآني لابد من دراسة الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم تدل على اليوم الآخر وتشير إليه من قريب أو بعيد، وإذا نظرنا في القرآن الكريم نرى كثرة في الألفاظ الدالة عليه وتعددها بشكل لافت، وكل ذلك تقرير لحقيقة هذا اليوم وبيان ماهيته، ومما يجليه أمام العيان عن طريق وحي الألفاظ الدالة عليه.

وتوارد هذه الألفاظ في القرآن الكريم التي هي بعضها أسماء له، وتنوعها وكثرتها يدل على عظيم قدره وهوله وشدته ويبين شدة أهوال ذلك اليوم وتأثيره في الناس قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

بالإضافة إلى ذلك فإن كثرة أسمائه وأوصافه تدل على أهميته وشرفه؛ لأن كثرة الأسماء والأوصاف الدالة على الشيء الواحد تدل على شرف المسمى وكماله غالبًا، قال الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ): «اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء يوم القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته، وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايتها، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبي -عليه الصلاة والسلام- دلت على علو رتبته، وسمو درجته، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه، وفضيلته؟!»[1].

والقرآن الكريم عندما يستعمل هذه الألفاظ للدلالة عن ذلك اليوم العظيم، فإن كل لفظ منها يجلي صفة من صفاته وأهواله، و«كلها تشير إلى انفراط عقد هذا الكون المنظور، واختلال روابطه وضوابطه التي تمسك به في هذا النظام البديع الدقيق، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها»[2] من هذه الروابط والضوابط التي تضبطها بقدرة الله وإرادته. كما أن تعددها وتجمعها على صعيد واحد يقرب إلى الأذهان والقلوب على نحو من التوكيد صورة ذلك اليوم على الكون والانسان وأهواله وشدته، فيحدث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن، والملاحظ أن هذه الألفاظ أغلبها قد جاءت في سور مكية التي من أبرز أهدافها

(١) بصائر ذوي التمييز ١/ ٨٨.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٦٧٩.

تأسيس أصول الدين والعقيدة السليمة في القلوب، وهي توحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته للكون والخلائق جميعاً، وفي مقدمتها: الإنسان الذي كرمه الله أيما تكريم وفضله على كثير ممن خلق تفصيلًا، لذلك كان من «صفات السور المكية وبخاصة السور القصيرة منها أنها ذات أسلوب وإيقاع قويين شديدين في وقعهما يعملان على قرع القلوب بحقائقها التي تؤديها»[1]، ومنها هذه الألفاظ الدالة على اليوم الآخر التي ترد كثيرًا في مطالع هذه السور وفي آياتها فتلفت الانتباه لفتًا قويًا في تلقي المعاني والأصول الكبرى للدين الحنيف، وسنتناول في هذا الموضع بالتفصيل أسماء اليوم الآخر والألفاظ ذات الصلة به؛ لنحاول أن نجلي للمتلقي ونكشف له عن المعنى الذي ينطوي وراءها قدر الإمكان:

١. القيامة.

جاء هذا اللفظ للدلالة على اليوم الآخر في سبعين آية من آيات القرآن الكريم، وهو من أجلى الأسماء والصفات لذلك اليوم وأشهرها. ولم يرد هذا الاسم إلا مركبًا (يوم القيامة) من ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وغيرها من الآيات الكريمة. والقيامة لغة: مصدر قام يقوم، ودخلها التأنيث؛ للمبالغة، وسمي بذلك؛ لما يقوم فيه من الأمور العظام التي بينتها النصوص. ومن ذلك قيام الناس لرب العالمين[2].

٢. الساعة.

من الألفاظ الدالة على ذلك اليوم العظيم أيضًا: الساعة، وورد هذا اللفظ تسعًا وثلاثين مرة في خمس وثلاثين آية من آيات القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

وغيرها من الآيات. وأطلق لفظ الساعة على اليوم الآخر؛ إما لقربه، أو لأنه يأتي بغتة، أو في لحظة، أو في ساعة معينة وإذا باليوم الآخر قد قام، والناس غير منتبهين.

(١) انظر: التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، ص ٢٥٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٥١٨.

قال القرطبي رحمه الله: «والساعة بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه، وهو المسمى بالآن، وسميت به القيامة إما لقربها، فإن كل آت قريب. وإما أن تكون سميت بها تنبيهًا على ما فيها من الكائنات العظام التي تصهر الجلود. وقيل: إنما سميت بالساعة؛ لأنها تأتي بغتة في ساعة»[1].

٣. الواقعة.

يأتي لفظ الواقعة للدلالة على اليوم الآخر في موطنين من القرآن الكريم فقط، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ١-٧].

والموطن الثاني في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣-١٥].

وسمي بالواقعة؛ لتحقق كونه ووجوده؛ لأنه يقع لا محالة، أي: إذا وقعت التي لا بد من وقوعها، ووقوع الأمر نزوله[2]. ولفظ (الواقعة) من الأسماء التي انتقلت من الوصفية إلى الاسمية؛ لأنها ختمت بالتاء، وأوثر التعبير بلفظ (الواقعة) على وزن (فاعلة)؛ ليدلَّ على العموم والشمول والشدة والمبالغة[3].

٤. الحاقة.

جاءت ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾؛ للدلالة على اليوم الآخر ثلاث مرات في موطن واحد عند قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ١-٤].

سمي بذلك؛ «لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد؛ ولهذا عظم تعالى أمرها فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾»[4]. أو أنها: «سميت بذلك لأن فيها الثواب والجزاء»[5].

إضافة إلى ذلك أن في إطلاق لفظ ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ على اليوم الآخر دلالة على العموم والشمول والشدة والمبالغة في إثبات المعنى، وهو اسم على وجه التخصيص ليوم القيامة، أي: إنها تحق الحق في ذلك اليوم الذي لا يحيط به العلم والإدراك.

٥. الغاشية.

جاء لفظ ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ للدلالة على اليوم الآخر في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١].

وسمي بذلك؛ لأنه يغشى الناس بأفزاعه

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ص ٥٤٦.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٥٥.
(٣) انظر: معاني الأبنية في العربية، فاضل السامرائي ص١٢٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٠٨.
(٥) معاني القرآن، الفراء ٣/ ١٧٩.

وأهواله وشدائده ويغمهم، ومن معانيه أنَّ الكفارَّ تغشاهم النار، وتحيط بهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

أو سمي بذلك؛ لأنه يغشى الناس من كلِّ جهة أو بسبب مشاهِدِهِ المفزعة تغشى الناس فجاءة، ولا يخفى ما لهذا اللفظ من تصوير للهول الذي يحلُّ بالخلق يوم القيامة، وفي ذلك تهويل له في القلوب، ففيه إثبات لشاهده ودليله فهو يغشى الناس بعذابه ويلبسهم أهواله، قال الزمخشري رحمه الله: «﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها»[1].

٦. القارعة.

ورد هذا اللفظ للدلالة على اليوم الآخر أربع مرات في موطنين الأول في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤].

والثاني تكرر اللفظ فيه ثلاث مرات في سورة القارعة وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١-٣].

وسمي بالقارعة؛ لأنه يقرع القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفزاع لعظيم ما ينزل بهم من البلاء عندها، ويقرع الكون بالدمار والتحطيم وتتغير فيه معالم الكون كله، يقال: أصابتهم قوارع الدهر، أي: أهواله وشدائده[2]، وأصل القرع: «الضرب بشدة وقوة، تقول العرب: قرعتهم القارعة وفقرتهم الفاقرة[3]: إذا وقع بهم أمر عظيم»[4]، ويعمق هذا الإيحاء الإيقاع المنبعث من حروف ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ (القاف والراء والعين) المعروفة بقوتها وشدتها.

٧. الآزفة.

ورد هذا اللفظ في موضعين الأول مضافًا إلى اليوم في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

والثاني مجردًا في قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧].

وسمي اليوم الآخر بـ﴿ٱلْآزِفَةُ﴾ لأزوفه، أي: لقرب وقوعه، وضيق وقته؛ لأن الأزف: ضيق الوقت[5].

واليوم الآخر قريب جدًّا، وكلُّ آت فهو قريب وإن بعد مداه. وهو بعد ظهور علاماته أكثر قربًا. ولا يخفى ما للفظ ﴿ٱلْآزِفَةُ﴾ من تعظيم لشأنه وتفخيمه فهي قد «اقتربت

(١) الكشاف ٤/ ٧٤١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٣٦.

(٣) فقرتهم الفاقرة: أصابتهم مصيبة أو داهية كسرت فقار ظهورهم.
انظر: لسان العرب ٥/ ٦٢، مادة فقر.

(٤) صفوة التفاسير، الصابوني ٣/ ٥٦٨.
وانظر: لسان العرب ٨/ ٢٦٥ مادة قرع.

(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٧٥.

كاسحة جارفة، وهي الطامة والقارعة التي جاء النذير يحذركم إياها، أو هو العذاب الذي لا يعلم إلا الله نوعه وموعده، ولا يملك إلا الله كشفه ودفعه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾»[1].

٨. الراجفة والرادفة.

ورد هذان اللفظان في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٦-٩].

وهما يصوران على نحو شديد ما يقع من الهول والاضطراب في الكون حينئذ، فسمي بالراجفة؛ لأن فيه تهتز السموات والأرض ويضطرب نظامهما ويدمر كلّ شيء فيهما، أما تسميته بالرادفة؛ لأنها تتبع الراجفة، وقيل: هما النفختان في الصور، قال الزمخشري رحمه الله: «﴿الرَّاجِفَةُ﴾ الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال، وهي النفخة الأولى وصفت بما يحدث بحدوثها، ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ أي: الواقعة التي تردف الأولى، وهي النفخة الثانية. ويجوز أن تكون الرادفة من قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢].

أي: القيامة التي يستعجلها الكفرة استبعادًا لها، وهي رادفة لهم؛ لاقترابها.

وقيل: ﴿الرَّاجِفَةُ﴾: الأرض والجبال، من قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤].

و﴿الرَّادِفَةُ﴾: السماء والكواكب؛ لأنها تنشق وتنتشر كواكبها على أثر ذلك»[2].

٩. الصاخة.

ورد لفظ ﴿الصَّاخَّةُ﴾ في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣-٣٧].

وسمي اليوم الآخر بالصاخة؛ «لشدة صوتها؛ لأنها تصخ الآذان، أي: تصمها فلا تسمع»[3]، فهذا اليوم العظيم يصخُّ الناس فيه صخًّا بأهواله الشديدة، ومما يعزز هذا المعنى ويعمقه جرس اللفظ، فهو جرس شديد «يكاد يخرق صماخ الأذن، وهو يشق الهواء شقًّا، حتى يصل إلى الأذن صاخًّا ملحًّا»[4].

١٠. الطامة الكبرى.

جاء لفظ ﴿الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾؛ ليدل على اليوم الآخر في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ۝٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤-٣٥].

وسمي بـ﴿الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾؛ لتفظيعه في

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤١٨.
(٢) الكشاف ٤/ ٦٩٣.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٦٦.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٣٤.

قلوب السامعين وتهويله في نفوسهم، فهو يَطُمُّ بأهواله ودواهيه الخلق لعظمه، قال البغوي رحمه الله: «وسميت القيامة طامةً؛ لأنها تطم على كلِّ هائلةٍ من الأمور، فتعلو فوقها وتغمر ما سواها، والطامة عند العرب: الداهية التي لا تستطاع»[1]. وبناء ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ وجرسها الإيقاعي يصوران هذا المعنى ويقربانه، فهي تدل على العموم والشدة والمبالغة؛ لأنها من الأسماء التي ختمت بتاء التأنيث، فانقلبت من الوصفية إلى الأسمية[2].

١١. الآخرة.

ورد لفظ الآخرة في القرآن الكريم مائة وخمس عشرة مرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١].

وغيرها من الآيات. و«سميت آخرة؛ لتقدم الدار الأولى أمامها، فصارت التالية لها آخرةً. وقد يجوز أن تكون سميت آخرة؛ لتأخرها عن الخلق، كما سميت الدنيا (دنيا)؛ لدنوها من الخلق»[3].

(١) فتح القدير ٥/ ٤٥٩.
(٢) معاني الأبنية في العربية، ص ١٢٢- ١٢٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ٢٤٥.

أوصاف اليوم الآخر

تناولنا فيما سبق أسماء اليوم الآخر والألفاظ ذات الصلة به، والآن نتناول أوصاف هذ اليوم في التعبير القرآني؛ لتتضح ملامح هذا اليوم العظيم من خلال هذه الأوصاف.

والناظر في القرآن الكريم يجد أنَّ الله تعالى وصف اليوم الآخر بأوصاف كثيرة متنوعة، وهذه الأوصاف تبين حقيقته، فهي بمثابة التعريف به وبيان ماهيته، وسنحاول الوقوف على معنى الوصف ودلالته ومناسبته لليوم الآخر في القرآن الكريم ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا:

١. يوم الدين.

يعد هذا الوصف ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ من أشهر أوصاف اليوم الآخر، وقد ورد في ثلاثة عشر موضعًا من كتاب الله تعالى، من ذلك قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الصافات: ٢٠].

وغيرها من الآيات الكريمات. وأصل الدين في لغة العرب: الجزاء والحساب، «يقال: كما تدين تدان، المعنى: كما تعمل تعطى وتجازى»[4].

ومن هنا كان المراد من يوم الدين: يوم

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٧.

الحساب والجزاء الذي يحاسب ويجازي الله فيه العباد على أعمالهم وأفعالهم في الدنيا.

٢. يوم الحساب.

وصف هذا اليوم بـ﴿يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ في القرآن الكريم في أربعة مواضع ثلاثة منها في سورة ص والآخر في سورة غافر، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

ووصف هذا اليوم بيوم الحساب؛ لأن فيه يحاسب الله تعالى العباد على أعمالهم خيرها وشرها والنعم التي أنعمها عليهم فيها في أبدانهم ومطاعمهم، وغير ذلك من النعم، قال القرطبي: «يوم الحساب معناه أنَّ الباري سبحانه يعدد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة، ويعدد عليهم نعمه، ثم يقابل البعض بالبعض فما يشفُّ منها على الآخر حكم للمشفوق بحكمه الذي عينه للخير بالخير وللشر بالشرِّ»[(١)].

٣. يوم الجمع.

جاء وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ في موضعين من كتاب الله تعالى، الأول: في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧].

والثاني: في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

ووصف الله تعالى هذا اليوم العظيم بيوم الجمع؛ لأنه تعالى في هذا اليوم يجمع الخلائق كلها أولها وآخرها للحساب، قال الرازي رحمه الله: «وفي تسميته بيوم الجمع وجوهٌ: الأول: أن الخلائق يجمعون فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]. فيجتمع فيه أهل السموات مع أهل الأرض، الثاني: أنه يجمع بين الأرواح والأجساد، الثالث: يجمع بين كلِّ عاملٍ وعمله، الرابع: يجمع بين الظالم والمظلوم»[(٢)].

٤. يوم الفصل.

وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ في ستة مواضع من الكتاب الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢١].

وقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠].

وغيرها من الآيات الكريمات. والفصل: البون ما بين الشيئين والجبلين وهو المفصل، ويطلق أيضًا ويراد به القضاء بين الحق والباطل، يقال: أمرٌ فيصلٌ وفاصلٌ،

(١) التذكرة بأحوال الموتى ص ٥٦٢.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٧/ ٥٨٠.

أي: قاطعٌ[1].

ووصف اليوم الآخر بيوم الفصل؛ لأنه اليوم الذي يفصل فيه بين عباده الأولين والآخرين بأعمالهم فيما كانوا فيه يختلفون، وفيما كانوا فيه يختصمون، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥].

إضافة إلى ذلك أنه اليوم الفاصل الذي يبين الحق فيه من الباطل[2].

٥. يوم البعث.

ورد وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ مرتين في موضع واحد من كتاب الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

وأصل البعث: إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث، ويختلف بحسب اختلاف ما علق به. ويوم البعث هو يوم الخروج من القبور[3].

قال ابن منظور: «والبعث أيضًا: الإحياء من الله للموتى؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾: أي: أحييناكم. وبعث الموتى: نشرهم ليوم البعث. وبعث الله الخلق يبعثهم بعثًا: نشرهم»[4].

فهو يوم عظيم للخلق بعد الموت وانقضاء الدنيا يوم يبعثهم الله من قبورهم للحساب والجزاء، فينبئهم الله تعالى بما عملوه في الدنيا.

٦. يوم التلاق.

لم يرد وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ إلا مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾[غافر: ١٥].

ووصف اليوم الآخر به من عدة وجوه منها أنه يوم عظيم يلتقي به الخلق كلهم الأولون والآخرون، حتى يلتقي فيه آدم عليه السلام بآخر ولده، وفيه يلتقي الخالق بالمخلوق، ويلتقي فيه أهل السماء بالأرض، والظالم بالمظلوم، بالإضافة إلى أنه يوم تتلاقى فيه الأرواح بالأجساد، وأنَّ كلَّ عامل سيلقى ما عمله من خير وشر ويجازى عليه وغيرها[5].

٧. يوم التغابن.

جاء وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ مرة واحدة فقط، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ [التغابن: ٩].

و(التغابن) على وزن تفاعل من الغبن

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٣٢٤.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٩.
(٣) انظر: المفردات، الراغب ص ١٣٢.
(٤) لسان العرب ٢/ ١١٧، مادة بعث.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧/ ١٣٥- ١٣٦.

وهو: «أن تبخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضربٍ من الإخفاء»[1].

أما في سبب وصفه بيوم التغابن؛ لأنه في ذلك اليوم يظهر الغبن والتفاوت بين الخلق من أربعة وجوه:

أحدها: أنه ليس من كافر إلا وله منزل وأهل في الجنة، فيرث ذلك المؤمن، فيغبن حينئذ الكافر.

والثاني: غبن أهل الجنة أهل النار.

والثالث: أنه يوم غبن المظلوم الظالم؛ لأن المظلوم كان في الدنيا مغبونًا، فصار في الآخرة غابنًا.

والرابع: أنه يوم يظهر فيه غبن الكافر بتركه للإيمان، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان[2].

٨. يوم التناد.

لم يرد وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢].

والتناد: مصدر تنادى القوم، أي: نادى بعضهم بعضًا، ويوم التناد وصف لليوم الآخر، وصف بذلك؛ لكثرة ما يحصل من نداء في ذلك اليوم، فالله تعالى ينادي المشركين؛ توبيخًا لهم في ذلك اليوم العظيم فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٧٤].

والناس يومئذ ينادي بعضهم بعضًا في هذا اليوم، فينادي أصحاب الأعراف رجالًا يعرفون بسيماهم في النار، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة، وينادي أهل النار بعضهم بعضًا؛ للاستغاثة، أو يتصايحون فيه بالويل والثبور. والملائكة تنادي الخلق ينادون إلى المحشر، وتنادي أصحاب الجنة إلى غير ذلك مما يقع في هذا اليوم من التنادي[3].

٩. يوم الخلود.

ورد وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤].

ووصف اليوم الآخر بيوم الخلود؛ لأن الناس يصيرون إلى دار الخلود، فالمؤمنون مخلدون في الجنان والكافرون مخلدون في النار، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧][4].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٠٢.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٩٣.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٣٢٠.
(٤) انظر: القيامة الكبرى، عمر الأشقر ص ١٩.

١٠. يوم الحسرة.

لم يرد وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[مريم: ٣٩].

ووصف هذا اليوم بيوم الحسرة؛ لشدة تحسر العباد فيه وندمهم على ما فرطوا فيه من الصالحات في الدنيا. والحسرة: الغمُّ على ما فات والندم عليه، قال تعالى عن حال المقصر في الاخرة: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦][(١)].

١١. يوم الخروج.

وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ مرة واحدة في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢].

والخروج: مأخوذ من خرج يخرج خروجًا إذا برز من مقره أو حاله. ووصف هذا اليوم بيوم الخروج؛ لأنه يوم الخروج من القبور، فالخلق يخرجون من قبورهم للحساب؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣][(٢)].

١٢. يوم الوعيد.

لم يرد وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾[ق: ٢٠].

ووصف هذا اليوم بيوم الوعيد؛ لأنه اليوم الذي يحصل فيه الوعيد للكافرين الذي توعدهم الله به في الدنيا، «وإضافة يوم إلى الوعيد من إضافة الشيء إلى ما يقع فيه، أي: يوم حصول الوعيد الذي كانوا توعدوا به، والاقتصار على ذكر الوعيد؛ لما علمت من أنَّ المقصود الأول من هذه الآية هم المشركون»[(٣)].

١٣. اليوم الموعود.

وصف اليوم الآخر بـ(اليوم الموعود) مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ [البروج: ٢].

ووصف هذا اليوم بالموعود؛ لأنه تعالى وعد بوقوعه بعد زوال الدنيا، واجتماع الخلق فيه، ومحاسبتهم على أعمالهم كلها[(٤)].

١٤. يوم الوقت المعلوم.

وصف اليوم الآخر بـ﴿يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ مرتين في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[الحجر: ٣٧-٣٨].

وقوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[ص: ٨٠-٨١].

(١) انظر: المفردات، الراغب ص ٢٣٥.
(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٧٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٣٠٧.
(٤) انظر: تفسير القرآن الكريم، جزء عم، ابن عثيمين ص ١٢٥.

ووصف اليوم الآخر بيوم الوقت المعلوم؛ لأن الله تعالى عنده علمه وحده[1].

هذه أشهر أوصاف اليوم الآخر في القرآن الكريم، وقد وردت أوصاف أخرى كثيرة تدلُّ على أنَّ المراد منها هو اليوم الآخر، اشتقها العلماء من الآيات ومعانيها من ذلك:

- يوم عسير في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: ٩].
- ويوم عظيم في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٥].
- ويوم كبير في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].
- ويوم أليم في قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥].
- ويوم عبوس قمطرير في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠].
- ويوم مشهود في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].
- ويوم عقيم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥].
- ويوم يكشف عن ساق في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢].
- ويوم جعل الولدان شيبًا في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].
- ويوم لا بيع فيه ولا خلة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].
- ويوم لا ريب فيه في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].
- ويوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا وما عملت من سوء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

(١) انظر: مفاتيح الغيب ١٩/ ١٤١.

- ويوم تبيض وجوه وتسود وجوه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].
- ويوم يجمع الله الرسل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].
- ويوم ينفع الصادقين صدقهم في قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].
- ويوم يقول نادوا شركائي في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢].
- ويوم ينفخ في الصور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢].
- ويومكم هذا في قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].
- ويوم يأتي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].
- ويومهم الذي في قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣].
- ويوم يحمى عليها في نار جهنم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٥].
- ويوم يلقونه في قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧].
- ويوم مجموع له الناس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

إلى غير ذلك من الأوصاف التي جلت معالم هذا اليوم المهول ورسمت معالمه. واليوم الآخر لما عظم أمره وكثرت أهواله، سماه الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة، ووصفه بأوصاف كثيرة، وهذا شائع في كلام العرب، فهم كلما عظم شأن الشيء عندهم تعددت أسماؤه وصفاته، فالشيء الحقير ما له إلا اسم واحد فقط، لكن الشيء العظيم

له أسماء كثيرة، فـ(السيف) لما عظم عندهم موضعه وتأكد نفعه لديهم وموقعه جمعوا له خمسمائة اسم مثل المهند، والصارم، والمسلول، والبتار وغيرها، و(الأسد) كذلك جمعوا له أسماء كثيرة مثل: ليث، وغضنفر؛ لأنه أسد[1].

الأدلة القرآنية على البعث بعد الموت

البعث كما سبق ذكره هو إحياء الأجساد وعودة الأرواح إليها، بعد نفخة الصور الثانية، فيقوم الناس لرب العالمين، حفاةً عراةً غرلًا، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

والبعث ركن ثابت في الإيمان باليوم الآخر، وقد أثبته القرآن الكريم في كثير من المواضع، واستدل على وقوعه وتحققه وعالجه بشتى الطرق والأساليب، وأثبته بالأدلة النقلية عن طريق آياته التي توجب الإيمان به، والأدلة العقلية من خلال الاستدلال بآيات الله تعالى الكونية في الأرض على إثبات البعث بعد الموت، وجاء تركيز القرآن الكريم على هذه القضية؛ لأن كفار مكة كانوا ينكرونها، ويعتقدون أن لا حياة بعد الموت كما حكى عنهم القرآن: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾[فصلت: ٥٤].

واستدلوا بعدم البعث بعد الموت واستبعدوه بعدم حدوث شيء لآبائهم كما حكى عنهم القرآن من ذلك في قوله تعالى:

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص٥٤٤.

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُم مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٦-٦٨].

فرد عليهم القرآن الكريم ظنهم الفاسد وشكهم بالبعث والحساب بقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

وتوعدهم بالعذاب الأليم مثل قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾[الإسراء: ٩٧-٩٩].

وحاججهم في كثير من المواضع، وأثبت البعث والحساب بالأدلة العقلية -كما سيأتي بيانها بالتفصيل- كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وسنتناول فيما يأتي معالجات القرآن الكريم لشبهات منكري البعث، وإيراده الأدلة العقلية والنقلية على إثباته ووقعه لا محالة ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، وعلى النحو الآتي:

أولًا: الأدلة العقلية:

أورد القرآن الكريم أدلة عقلية كثيرة تثبت البعث والحساب، وسلك في ذلك لإثباتها مسالك مختلفة في طريقة العرض والاستدلال، ومن هذه الأدلة العقلية:

١. قدرة الله المحيطة بكلِّ شيء.

من الأدلة العقلية التي ساقها القرآن الكريم في آياته لإثبات عقيدة البعث بعد الموت هي قدرة الله المحيطة بكلِّ شيء، فالله تعالى خالق الكون كله ومنه الإنسان، وهو القادر على إحيائه بعد موته وهو أهون عليه، ولقد جاءت آيات كثيرة تدلُّ على ذلك يقترن فيها الرد على منكري البعث بالتذكير بقدرة الله تعالى على ذلك منها تعرضها لشكِّ الكافرين بالبعث والحساب، فترد عليهم، وتثبت من خلال الطبيعة كتاب الله المنظور تعالى صدق الوعد الذي يكذبونه، منوعة في عرض الأدلة تنويعًا عجيبًا وصولًا إلى إثبات البعث ودفع شبه منكريه.

والله تعالى له القدرة المطلقة، فهو سبحانه على كلِّ شيء قدير، وما دامت له القدرة المطلقة تعالى، فإن مقتضى ذلك أن يقدر على إحياء الموتى، فضرب لهم سبحانه الأمثلة بأمور مشاهدة من الحياة

هي نظير بعث الأجساد وحشرها، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩].

ففي الآية «دلالة واضحة على قدرة الله، فكيف يستبعد عليه إعادة تلك الأجسام الضعيفة بعد تفرقها، وهو القادر على خلق هذه الآيات العظيمة، من السماء والأرض، ذلك هو دليل البعث؛ لأنه يدلُّ على كمال القدرة، ومن المقدور عليه إعادة خلق الإنسان وإيجاده مرة أخرى، وقد قرن هذا الدليل بالتهديد حيث قال: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

ثم بين تعالى أن المنتفع بتلك الآيات كلُّ من يرجع إلى ربه، ويتوب إليه، لا من يتمادى في عناده وتعصبه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾»[1].

ومن الآيات التي دلت على قدرته تعالى في إحياء الموتى وبعثهم وحاججت منكري البعث قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٩-٧٤].

وقد تضمنت هذه الآيات أربعة أدلة حسية ومشاهدة من واقع الإنسان وحياته على جواز البعث وإمكانه: الأول: ماء الرجل (المني) في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾، والثاني: إنبات النبات في

(١) مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، علي الفقيهي، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة الثالثة عشر، العدد ٥٠، ٥١ ربيع الآخر، رمضان ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ٦٨.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، والثالث: إنزال المطر في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ وسيأتي بيان هذه الأدلة.

ومن أَجَلِّ الآيات التي بينت قدرة الله على البعث وحاججت منكريه قوله تعالى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١-١٥].

وبعد سوق كل هذه الأدلة التي يراها كلُّ الناس بأعينهم، والتي فيها دلالةٌ على البعث يأتي قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾؛ ليوضح الصورة التي كانوا ينكرونها ويقربها إليهم عن طريق التشبيه، إذ شبه سبحانه إحياء الإنسان وبعثه بعد موته، بإحياء الأرض وإنباتها بالغيث بعد طول اليبس والجدب، وهذا يدل على كمال قدرة الله تعالى [(١)].

وخروج الإنسان من قبره للبعث يكون بنزول الماء من السماء أيضًا، كما جاء في الحديث الصحيح: **(ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة)** [(٢)].

ومن الأدلة على إمكانية البعث بيان قدرة الله تعالى على إخراج الأشياء من أضدادها. فإذا كانت الحياة ضد الموت، والبعث ضد الفناء، فإن الله تعالى الذي يخرج الضد ممن ضده قادر على إحداثه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧].

فالله هو الذي يخرج الإنسان الحي من النطفة، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان

(١) انظر: الإبداع البياني، الصابوني ص٣١٦.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، البخاري، كتاب التفسير، باب (يوم ينفخ في الصور)، رقم ٤٩٣٥، ٦/ ١٦٥.

الحي، وكذلك الأنعام والبهائم، فالنطفة ميتة ثم ينشئ الله منها إنسانًا حيًّا، ومن الإنسان الحي تخرج النطفة الميتة، ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[الأنعام: ٩٥-٩٦].

٢. القادر على الأكبر قادر على الأصغر.

من الأساليب القرآنية لإثبات البعث والحياة بعد الموت الاستدلال بأن من خلق الأعلى والأكبر والأعظم، فقدرته على خلق الأدنى والأصغر أولى، والله تعالى من جملة خلقه ما هو أعظم من خلق الناس، ومن ذلك لفت النظر إلى خلق السموات وما فيهما من الشمس والقمر وسائر الكواكب والأرض وما فيها من جبال رواسي شامخات وأنهار وسهول وهضاب وغيرها، على ما اشتملت عليه من العظمة التي تعلو على خلق الإنسان أضعافًا مضاعفة.

فكيف يقال للذي خلق هذا الخلق العظيم بأنه لا يستطيع أن يخلق ما دونها ويعيده بعد موته؟

وهذا في حق الخلق، أما في حق الله الخالق فالكلُّ في قدرته، سواء كبر المخلوق أم صغر، فخلق السموات والأرض كخلق أصغر شيء، فالكلُّ سواء في ميزان القدرة الإلهية، ولكنه سبحانه يضرب الأمثال لنا بما نعقله وندركه، وقد ورد هذا الاستدلال في آيات كثيرة من القرآن الكريم تبين في مجملها أن خلقهما أعظم من خلق الإنسان.

ومن الآيات الدالة قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨١-٨٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٦-٥٧].

فاستدلَّ ربنا تعالى باقتداره على خلق السموات على اقتداره على إعادة الأروح إلى الأجساد عند البعث بعد الموت؛ لأن خلق الإنسان أقلُّ شأنًا من خلق السموات والأرض، ومن ثَمَّ فإن الله تعالى القادر على خلق السموات والأرض لا يعجزه خلق الإنسان -الذي هو جزء من هذا الكون- وإعادته.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يدمج الله تعالى الاستدلال على البعث بالتحدي

وذلك في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣٢].

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن أورد عددًا من الآيات حول هذا الاستدلال: «فالله تعالى لم يكتف في بيان إمكان المعاد بهذا؛ إذ يمكن أن يكون الشيء ممتنعًا ولو لغيره، وإن لم يعلم الذهن امتناعه؛ بخلاف الإمكان الخارجي. فإنه إذا علم بطل أن يكون ممتنعًا، والإنسان يعلم الإمكان الخارجي؛ تارةً بعلمه بوجود الشيء، وتارةً بعلمه بوجود نظيره وتارةً بعلمه بوجود ما هو أبلغ منه، فإن وجود الشيء دليلٌ على أن ما هو دونه أولى بالإمكان منه.

ثم إنه إذا بين كون الشيء ممكنًا فلا بد من بيان قدرة الربِّ عليه، وإلا فمجرد العلم بإمكانه لا يكفي في إمكان وقوعه إن لم تعلم قدرة الرب على ذلك. فبين سبحانه هذا كله بمثل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩].

فإنه من المعلوم ببداهة العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم والقدرة عليه أبلغ، وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك»[1].

٣. القادر على البدء قادر على الإعادة.

من أدلة القرآن الكريم في الاستدلال على البعث بعد الموت استدلاله على وقوع وإمكان النشأة الثانية -البعث بعد الموت- بالنشأة الأولى -الخلق الأول.

وهذا استدلال جاء في كثير من آيات القرآن الكريم، استدلال يلزم منكر البعث الحجة بالدليل القاطع، فهو يغفل عن أن خلقه على هذا النحو أعظم دليل، فهو يرى بأم عينيه كل يوم النشأة الأولى للإنسان والحيوان، ومن كانت هذه حاله في الأولى لن يصعب إرجاعه في الثانية؛ لأن الذي خلق من العدم قادر غير عاجز تعالى على أن يعيده وهو أهون عليه، لكن فطرة هؤلاء المنكرين فسدت؛ لكفرهم وعنادهم، فغابت عنهم الحقائق الثوابت: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ١-٢].

ومن الآيات الكريمات التي ذكرت الاستدلال على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى، وتذكير منكري البعث المستبعدين له بهذه الحقيقة الثابتة التي لا يستطيع أحد إنكارها قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/ ٢٩٩.

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨-٥٢].

فالآيات تعرض لسؤال منكري البعث المتكرر دومًا (من يعيدنا؟)، (من يبعثنا؟) وهذا غاية الإنكار منهم، كما قال الألوسي رحمه الله: «فيه من الدلالة على غلوهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيد عليه»(١).

فجاءت الآيات بالجواب البليغ المفحم بأن قل لهم يا محمد -تحقيقًا للحقِّ، وإزاحة للاستبعاد، وإرشادًا لهم إلى طريقة الاستدلال-: إن الذي يعيدكم ويبعثكم هو الله القادر العظيم الذي فطركم وأنشأكم في النشأة الأولى، من غير مثال سابق يحتذيه ولا أسلوبٍ ينتحيه، وكنتم ترابًا ما شم رائحة الحياة، أليس الذي يقدر على ذلك بقادر على أن يعيد العظام البالية إلى حالتها المعهودة؟! بلى إنه على كلِ شيء قدير(٢).

قال الرازي رحمه الله: «فإن المنافاة بين الحجرية والحديدية، وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظمية وبين قبول الحياة، وذلك أن العظم قد كان جزءًا من بدن الحي، أما الحجارة والحديد فما كانا البتة موصوفين بالحياة، فبتقدير أن تصير أبدان الناس موصوفةً بصفة الحجرية والحديدية بعد الموت، فإن الله تعالى يعيد الحياة إليها ويجعلها حيًّا عاقلًا كما كان»(٣).

ولكن لا زال الجحود والشكُّ والريبة تجول في عقول المنكرين للبعث ومخيلتهم، كما ذكر الله عنهم بقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

فالوجود دليل على العدم؛ إذ لولا ذلك لما كان للشيء وجود في الخارج.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم نجد تفصيلًا في الاستدلال على البعث بالخلق الأول للإنسان، فأبونا آدم خلقه الله من تراب، فالقادر على جعل التراب بشرًا سويًّا، لا يعجزه أن يعيده بشرًا سويًّا مرة أخرى بعد موته، ويذكر أيضًا بخلقنا نحن -ذرية آدم- فإنه خلقنا من سلالة من ماء مهين، تَحَوَّلَ هذا الماء فأصبح نطفة، ثم صارت النطفة علقة، ثم تحولت إلى مضغة. إلى أن نفخ فيها الروح، وجعلها إنسانًا سويًّا.

فالقادر على هذا الخلق المشاهد

(١) روح المعاني ٨/ ٨٧.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ١٧٧.
(٣) مفاتيح الغيب ٢٠/ ٣٥٢.

المعلوم، قادر على إعادته، وإحياء الموتى.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

وهذه الآيات تعطي تفصيلًا للمراحل التي يمر بها خلق الإنسان، فقد قابل الله هذه المراحل بعدة دلالات على قدرته سبحانه على البعث.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «أي إنهم التبس عليهم إعادة الخلق خلقًا جديدًا، ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد، وهو خلق الإنسان؛ فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد، وأي دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها وقواها وصفاتها، وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات والعلوم والإرادات والصناعات؟! كل ذلك من نطفة ماء! فلو أنصف العبد ربه لاكتفى بفكره في نفسه، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته»[1].

وهذه الآيات لها دلالة عقلية على البعث: فهي نقلة ضخمة بعيدة الأغوار والآماد، تشهد بالقدرة التي لا يعجزها البعث، وأنَّ إنشاء الإنسان من التراب، وتطور الجنين في مراحل حياته، وانبعاث الحياة من الأرض بعد الهمود، كلُّ ذلك متعلق بأن الله هو الحقُّ، فهو من السنن المضطردة التي تنشأ من أن خالقها هو الحقُّ الذي لا تختل سننه ولا تتخلف، وأن اتجاه الحياة في هذه الأطوار؛ ليدل على الإرادة التي تدفعها وتنسق خطاها وترتب مراحلها.

فهناك ارتباط وثيق بين أن الله هو الحقُّ، وبين هذا الاضطراد والثبات، والاتجاه الذي لا يحيد، وأن إحياء الموتى هو إعادة للحياة، والذي أنشأ الحياة الأولى هو الذي ينشئها للمرة الآخرة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾؛ ليلاقوا ما يستحقونه من جزاء، فهذا البعث تقتضيه حكمة الخلق والتدبير، وإنَّ هذه الأطوار التي يمرُّ بها الجنين، ثمَّ يمر بها الطفل بعد أن يرى النور؛ لتشير إلى أن الإرادة المدبرة لهذه الأطوار ستدفع

(١) الفوائد، ابن القيم ص ٩.

بالإنسان إلى حيث يبلغ كماله الممكن في دار الكمال؛ إذ إن الإنسان لا يبلغ كماله في حياة الأرض، فهو يقف ثم يتراجع ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾.

فلابد من دار أخرى يتم فيها تمام الإنسان، فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة، فهي تدلُّ على البعث من ناحية أنَّ القادر على الإنشاء قادر على الإعادة، وهي تدلُّ على البعث؛ لأن الإرادة المدبرة تكمِّلُ تطوير الإنسان في الدار الآخرة، وهكذا تلتقي نواميس الخلق والإعادة ونواميس الحياة والبعث، ونواميس الحساب والجزاء، تشهد كلها بوجود الخالق المدبر القادر، الذي ليس في وجوده جدال[1].

ومن الآيات أيضًا قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

فالله تعالى يعلم أين ذهبت العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها وتفرقها وتمزقها، ويعلم مم يعيد خلق الإنسان كما بدأه من أصغر جزء في الإنسان وهو: عجب الذنب. قال مجاهدٌ، وعكرمة، وعروة بن الزبير، والسدي، وقتادة في سبب نزول هذه الآيات الكريمات: (جاء أبي بن خلفٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عظمٌ رميمٌ، وهو يفتته ويذريه في الهواء، وهو يقول: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال: (نعم، يميتك الله تعالى ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار).

ونزلت هذه الآيات من آخر يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾، إلى آخرهن عن ابن عباس، (أن العاصي بن وائلٍ أخذ عظمًا من البطحاء ففته بيده، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أيحيي الله هذا بعد ما أرى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم، يميتك الله ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم). قال: ونزلت الآيات من آخر يس)[2].

وقد أمر الله عباده بالسير في الأرض، والنظر في كيفية بدء الخلق؛ ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٧-٢٨].

وهذه الآيات مثلٌ ضربه الله تعالى لعباده؛ ليدلَّ على «أن الإعادة أهون عليه

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٠٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٥٩٤.

من البداية، أي: أيسر، وإن كان جميعه على الله تعالى هينًا، وقاله ابن عباسٍ. ووجهه أن هذا مثلٌ ضربه الله تعالى لعباده، يقول: إعادة الشيء على الخلائق أهون من ابتدائه، فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم»[1].

يقول الفخر الرازي رحمه الله معلقًا على هذه الآيات نقلًا: «لو اجتمع كلُّ الخلائق على إيراد حجةٍ في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها؛ إذ لاشكَّ أنَّ الإعادة ثانيًا أهون من الإيجاد أولًا، ونظيره: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧]»[2].

وبمجموع الآيات السابقة كلها نجد أن أسلوب الآيات يمزج الحجج والبراهين العقلية القاطعة بالكلمات البليغة المؤثرة، والمنطق الصحيح، وبهذا يرد القرآن الكريم على منكري البعث والحساب ويجادلهم ويبطل مزاعمهم، ويبدد شبههم الباطلة الواهية في أسلوب بليغ محكم يلزم الحجة في الاستدلال على البعث بعد الموت بالنشأة الأولى.

٤. القادر على الإماتة ثم الإحياء قادر على البعث.

إنَّ تقلب الخلق بين الموت (العدم) ثمَّ الحياة، ثم الموت، ثم الحياة الأبدية الخالدة أعظم دليل على قدرة الله التي تجعل النفوس تخضع لعظمته وسلطانه فـ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

وفي كثير من المواضع من القرآن الكريم يبين ربنا الرحمن تعالى أن من تمام مستحقات ألوهيته وربوبيته قدرته على تحويل الخلق من حال إلى حال، ولذا فإنه يميت ويحيي، ويخلق ويفني، ويخرج الحي من الميت، والميت من الحي، ومن كانت هذه حاله فهو قادر على رد الأرواح إلى الأجساد وبعثها في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢١.
(٢) مفاتيح الغيب ٢١/ ٥٥٦.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤-٩٨].

وأبعد من ذلك فقد استدل القرآن الكريم في كثير من آياته بقصص وأحداث من أماتهم الله تعالى ثم أحياهم في الدنيا؛ ليثبت قضية البعث بعد الموت، ويدلل على صدق ما أخبر به الرسل من أمر المعاد. ومن هذا الاستدلال ما ورد في سورة البقرة، إذ وردت فيها أحداث متنوعة تدلل على ذلك:

منها حادثة بني إسرائيل مع نبيهم سيدنا موسى عليه السلام حين قالوا له: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأماتهم الله تعالى، ثم أحياهم، وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل في معرض الامتنان عليهم: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٧].

وقريب من هذه الحادثة ما تحكيه لنا السورة المباركة أن أناسًا فروا خوفًا من قدر الله المتحقق في الموت، وهم ألوف، فوقعوا به فماتوا ثم أحياهم الله بعدها، يقول ربنا تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وفي هذه الآيات «يقص سبحانه وتعالى علينا قصة الذين خرجوا من ديارهم على كثرتهم واتفاق مقاصدهم، بأن الذي أخرجهم منها حذر الموت من وباء أو غيره، يقصدون بهذا الخروج السلامة من الموت، ولكن لا يغني حذر عن قدر، ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ فماتوا ﴿ثُمَّ﴾ إن الله تعالى ﴿أَحْيَٰهُمْ﴾ إما بدعوة نبي أو بغير ذلك، رحمة بهم ولطفا وحلما، وبيانا لآياته لخلقه بإحياء الموتى، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: عظيم ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فلا تزيدهم النعمة شكرًا، بل ربما استعانوا بنعم الله تعالى على معاصيه، وقليل منهم الشكور الذي يعرف النعمة ويقر بها ويصرفها في طاعة المنعم»[1].

ومنها أيضًا في الاستدلال على البعث قصة العزير عليه السلام وهو أحد أنبياء بني إسرائيل الذي مر على قرية ميتة فاستبعد أن يحييها الله تعالى، فأماته الله تعالى مائة سنة، ثم أحياه.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٦.

﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وهذه القرية هي: بيت المقدس، خربها الملك الجبار بختنصر وقتل أهلها، فمر عليها عزير، فإذا بالقرية خربة مدمرة، فوقف عزير متفكرًا فيما آلت إليه من الخراب، مستعظمًا قدرة الله ومعترفًا بالعجز عن معرفة طريق الإحياء فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟! فأراه الله ذلك في عالم الواقع؛ ليكون ذلك أبلغ في المعرفة؛ لأن أحاسيس الإنسان ومشاعره أحيانًا لا تقبل مجرد دليل، فأراه الله أبعد الأمرين في نفسه على أبلغ وجه، حيث أماته فاختلط لحمه وعظمه وشعره بالتراب ثم أحياه، ثم في غيره حيث أحيا له الحمار وحفظ طعامه من الفساد؛ ليكون ذلك آية على قدرة الله على البعث والإعادة ودرسًا لغيره[1].

ومن هذا الاستدلال في السورة المباركة نفسها سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحياء الموتى؛ فأمره الله تعالى أن يذبح أربعة من الطير، ويفرقهن أجزاء على الجبال التي حوله، ثم يناديهن، فتلتئم الأجزاء بعضها إلى بعض، ويأتين إلى إبراهيم سعيًا.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وهذه حادثة أخرى يستدل بها القرآن الكريم على البعث بعد الموت بطريقة عملية تطبيقية.

ومنها أيضًا في قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل، فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها؛ ليخبرهم بمن قتله، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٢-٧٣].

لقد كشف الله لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة. لقد كانوا قد قتلوا نفسًا منهم ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويلحقها بسواه. ولم يكن هناك شاهد فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢٨٩، تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٨٨.

وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه، وذلك بضربه ببعض من تلك البقرة. وهكذا كان، فعادت إليه الحياة؛ ليخبر بنفسه عن قاتله، وليجلو الشكوك التي أحاطت بمقتله، وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين. حادثة أمام العيان لم يكن الغرض منها إحياء هذا الميت؛ ليكشف لهم عن قاتله فحسب، بل ليكشف الله للقوم بأنه جعل ذبح البقرة وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله في إحياء الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل، حتى يبلغوا من بعدهم قدرة الله تعالى على الإيجاد والمعاد[1].

ومن هذا الاستدلال أيضًا الذي دل على إمكان إحياء الموتى. ما جعله الله تعالى من آيات عيسى بن مريم في إحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

ومن ذلك أيضًا ما أخبر الله عن قصة أصحاب الكهف، إذ لبثوا وهم رقود في كهفهم مدة طويلة ثم بعثهم قال تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ١١ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾ [الكهف: ١٠-١٢].

قال الشوكاني رحمه الله: «فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من البعث»[2]، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ﴾ [الكهف: ٢١].

إن هذه الحوادث والقصص كلها جاءت؛ لتدل على إحياء الموتى بعد مماتهم، وهذا برهان قطعي على قدرة الله تعالى على ذلك، وعبرة وعظة لمنكري البعث وتبصرة وذكرى لكل عبد منيب.

٥. العدل والحكمة يستلزمان وجود اليوم الآخر.

لم يخلق الله تعالى الخلق عبثًا ولن يتركهم سدى، بل خلقهم لغاية معلومة وهي العبادة؛ لتكون الدنيا دار عمل واختبار لهم، فانقسموا على قسمين: قسم آمن وعمل الصالحات، والقسم الآخر كفر وعصى وعمل السيئات، ومن هنا فإن من حكمة الله ومقتضى عدله وجود البعث ومن ثم الجزاء للخلق بعد الموت؛ ليجزي كل واحد منهم

(١) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٧٩-٨٠.

(٢) فتح القدير ٣/ ٣٢٨.

الجزاء الأوفى على ما قدم في الدنيا، فيثيب المحسن منهم ويعاقب المسيء، ولو لم يكن هناك بعث للخلق وحساب لهم على أعمالهم التي قدموها في الحياة الدنيا، لكان الخلق كله عبثًا باطلًا ولانتفت صفة العدالة في حقه تعالى، وهذا أمر لا يتفق مع حكمة الله تعالى وعدله وهو مناقض ومعارض للعدل الرباني الإلهي؛ لأن الله خلق الخلق لعبادته، وأرسل الرسل وأنزل عليهم الكتب؛ لبيان الطريق الموصلة إليه، وعليه فإن ذلك يستلزم الحساب والجزاء -كما سبق-.

وقد جاءت آيات كثيرة من القرآن الكريم تبين أن البعث ضرورة يقتضيها عدل الله وحكمته وتقرر ذلك، منها قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

آيات ابتدأت المحاجة بالاستفهام الإنكاري؛ لنفي التساوي بين المسلمين والكافرين في الجزاء، وإبطال زعم الكافرين بالتساوي حينها. أي: لا يكون المسلمون كالمجرمين الكافرين في سوء الحال والمآل.

ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

فهل يظن عاقل أن يترك الإنسان في هذه الدنيا لا يؤمر ولا ينهى ويترك في قبره سدى دون أن يبعث؟! إن ذلك لا يليق بحكمة الله، فكل شيء يصدر عنه سبحانه له حكمة تقتضيه[1].

وعدل الله لا يسوي بين من أحسن وأساء قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

قال ابن القيم رحمه الله: «لهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه»[2].

وحكمته تعالى تقتضي أن تكون هناك حياة ثانية بعد الحياة الدنيا، يقام فيها ميزان العدل الإلهي، وينال كل عامل جزاء عمله خيرًا كان أم شرًا، وهذا ما أكده القرآن وأشارت إليه آياته وقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

وغيرها من الآيات.

٦. القياس على المحسوسات كالنباتات.

ذكرنا -فيما سبق- أدلة على البعث وكانت أغلبها -إن لم تكن كلها- أدلة عقلية، وفي القادم نذكر بعض الأدلة الحسية من

(١) انظر: المصدر السابق ٣/ ٥٩٢.
(٢) الفوائد، ص ٧.

واقع الإنسان الذي يعايشه تدل على صدق البعث والنشور بعد الموت، أدلة حسية ملموسة في الأرض والسماء، كتاب الله المنظور، تأتي آيات القرآن الكريم -الكتاب المسطور- لتعبر عنها بأبلغ بيان وأحسنه وتقررها، أدلة جعلها الله لكل ناظر فيها الفوز والنجاة، ومن هذه الأدلة الحسية التي يشير إليها القران الكريم: الأرض اليابسة القاحلة الميتة، ومنها أيضًا: النبات وغيرها التي تأتي في مقام الاستدلال ومحاججة الكافرين ومنكري البعث على أن الله تعالى هو الخالق وحده لهذا الكون العظيم القادر على إفنائه، وهو وحده القادر على إعادة الخلق بعد مماتهم في اليوم الآخر بعد فناء الدنيا وزوالها، قال تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام وهو يدعو قومه إلى معرفة أمر البعث فيقول: ﴿وَاللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧-١٨].

ومن آيات الاستدلال بالأدلة الحسية: الأرض الميتة اليابسة التي لا نبات فيها وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

فهذا مثل ضربه الله تعالى بإحياء الأرض بالنبات بعد إنزال المطر عليها كدليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، فكما يحيي سبحانه الأرض الميتة التي لا نبت فيها ولا ماء يحيي الله تعالى الموتى عند البعث، فجعل الله سبحانه وتعالى إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلًا على خمسة مطالب:

أحدها: وجود الصانع وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله.

الثاني: أنه يحصي الموتى.

الثالث: عموم قدرته على كل شيء.

الرابع: إتيان الساعة، وأنها لا ريب فيها.

الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور كما أخرج النبات من الأرض[1].

(١) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن

قال ابن عاشور رحمه الله: «وهذا ارتقاءٌ في الاستدلال على الإحياء بعد الموت بقياس التمثيل؛ لأنه استدلالٌ بحالةٍ مشاهدةٍ، فلذلك افتتح بفعل الرؤية، بخلاف الاستدلال بخلق الإنسان؛ فإن مبدأه غير مشاهدٍ، فقيل في شأنه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾. ومحل الاستدلال من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾، فهو مناسبٌ لقوله في الاستدلال الأول: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾، فهمود الأرض بمنزلة موت الإنسان واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الإحياء بعد الموت»[1].

ومن الآيات التي تبين قدرة الله تعالى على البعث وتدلل عليه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٤٨-٥٠].

وفي هذه الآيات يربط القرآن الكريم حقيقة الحياة الدنيوية لبعض مخلوقات الله وبين النشأة الأخرى، موضحًا ذلك على طريقة الناس في معرفتهم لنشأة هذه الحياة، أي: كما أحيا الله الأرض الميتة بالماء، كذلك يحيي الموتى من قبورهم تصوير لكيفية انبعاث الحياة في الأبدان المودعة في القبور، بحال انبعاث الحياة في النبات المودعة في الأرض، بما يطرأ عليهما من أحوال مختلفة من حياة وموت بطريقة متعاقبة.

ومن آيات الاستدلال أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

آية يؤثرها التعبير القرآني بأسلوب الخطاب، وهو خطاب عام، والمعنى: ومن العلامات الواضحة والدلالات القاطعة على وجوده، وعلى البعث وأنه يحيي الموتى هذه الصورة المحسوسة. وأدخل المخاطب في جو الآية؛ ليباشر رؤية هذا المشهد المليء بالحركة بعد السكون، فالإنسان المنكر للبعث يرى في كل زمان ومكان الأرض ﴿الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ هكذا على سبيل استعارة الخشوع -وهو (التذلل)- لحال الأرض إذ كانت مقحطة يابسة لا نبات عليها.

وقد أوثرت هذه الاستعارة في هذه الآية، في حين وصفت الأرض في سورة الحج بأنها هامدة في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ

القيم، ٨/ ٣٠١.

(١) التحرير والتنوير ١٧/ ٢٠٣.

﴿وَرَبَتْ﴾، وهي صفات إنسانية أضفاها التعبير القرآني على الأرض، فأخرجها بهذه الصورة الموحية المؤثرة، والصفتان تعبران عن معنى واحد، وهو ما يظهر على الأرض من آثار الجدب وفقدان معالم الحياة.

ويتناسب اختيار الصفتين مع هدف الآيات في عرض قدرته تعالى على إحياء الأرض وهو إثبات البعث والنشور وإحياء الموتى، فكما أن الأرض ﴿خَٰشِعَةً﴾ و﴿هَامِدَةً﴾ لا حياة فيها ولا روح قبل نزول الماء عليها، كذلك ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ هامدون، وكما تستجيب الأرض الميتة وتهتز وتربو وتدب الحياة فيها بسبب الماء النازل، كذلك فإن الله الذي أحياها لمحيي الموتى، فالآيتان ذات دلالة شاملة من خلال اقترانهما بالسماء والأرض، وبذلك تحقق شمول العبرة لكل كائن على الأرض، وتتحقق نعمة الهداية، فضلًا عن أن حيوية الصورة قائمة بتجددها واستمرارها؛ لأن إنزال الماء على الأرض عملية مكررة مع الزمان والمكان، فهي قائمة ما دامت السموات والأرض، شاهدة على قدرته تعالى، يعتبر بها جيل بعد جيل، ولابد من ملاحظة التناسب والانسجام بين الفكرة المراد إثباتها وبين الاستعارتين، فهو تناسب وتأليف محكم[1].

ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وفي هذه الآيات السابقة استدلال بتبدل أحوال الأرض والنباتات من موت إلى حياة، وسلب خاصية النشوء والنماء في بعض النباتات فتهمد وتتفتت ثم تسقى بالماء فتعود إليها تلك الخاصية، فلو كان مستحيلًا إعادة الحياة إلى الإنسان مرة أخرى لما عادت الحياة إلى النباتات المختلفة بعد موتها؛ لأن المشابهة واضحة في القدرة الإلهية في إعادة الحياتين سيرتهما الأولى.

ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار المنكرين إلى التبصر في الموجودات الحسية واستنتاج العظات والعبر منها؛ ليعود للنفس إيمانها فتسعد بالطمأنينة والاستقرار، وقد تقدمت المشابهة بين إعادة الحياة إلى النبات بالمطر وإعادة بناء الأجساد وإنباتها بالمطر الذي يجعله الله عند البعث وهو مطر كمني الرجال فتنبت منه الأجساد. ولهذا يقول تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥].

إشارة إلى أن العجب يكون من إنكارهم لا من البعث ومعناه: إن كان لك عجب

(١) انظر: الاستعارة في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، ص ١٤٢ و ٢٢٣-٢٢٤.

من شيء فمن إنكارهم البعث، فاعجب؛ لأن العجب ما ندر وجوده وخفي سببه، وليس البعث مما ندر، وهم يشاهدون إحياء الأرض بعد موتها، واكتساء الأشجار بعد عريها، وعود النهار بعد زواله، والليل بعد ذهابه، وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، ولا مما خفي سببه فإن الله سبحانه هو الفاعل لذلك والمخترع له والقادر عليه وحكمته إظهار ما استتر عن خلقه من تدبيره، وما النشأة الثانية بأعجب من الأولى.

ومن طرق الاستدلال التي تبين قدرة الله تعالى على البعث وتدلل عليه بدليل واقعي حسي: (إخراج النار من الشجر الأخضر) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٧-٨٣].

فهذه الآيات تدلل على البعث عن طريق الشجر المقطوع لإيقاد النار، فالشجر إذا قطع وأصبح حطبًا يكون ميتًا وليس فيه أثر للحياة، فإذا أوقدت به النار دبت فيه الحركة واضطرب، وهذه آثار الحياة، فمن قدر على هذا قادر على إحياء الموتى، وقد ذكر الله تعالى هذا الدليل في موضع آخر في معرض الاستدلال على ألوهية الله وربوبية، وإثبات البعث والحساب، ومحاجة منكريه، وإبطال اعتقادهم الفاسد في سورة الواقعة، فبعد أن أكد سبحانه البعث إجمالًا في معرض الرد على الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٧-٥٠].

يرجع السياق لإثبات البعث بمحاججتهم بما يرونه بأعينهم من أدلةٍ وبراهين ثابتةٍ فيبدأ سبحانه بقوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧].

وهذه الحقيقة لا ينكرها مشركو العرب، فهم كانوا يؤمنون بأن الله تعالى هو الخالق، فخاطبهم تقريعًا لهم بأن من خلقهم أول مرةٍ سيعيدهم إلى الحياة بعد الموت، وهذا ما يدل عليه حذف مفعول الفعل ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ أي: بالبعث والحساب. ثم تأتي الآيات لتعقد حوارًا مع الكافرين لمحاججتهم عن طريق الاستفهام؛ لبيان عظمة الله تعالى وقدرته في هذا الكون وصولًا إلى تقريعهم وإثبات البعث وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا

تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٧٤].

ويلاحظ على الآيات أنها أدرجت ضمن منظومةٍ قرآنيةٍ تميزت بوحدة الموضوع والسياق والأسلوب، حتى إنها تمخضت عن قاعدةٍ أسلوبيةٍ في أدب الحوار والاستدلال، الاستدلال على قدرة الله تعالى على الخلق، والتصديق بحقيقة البعث، ولقد أتى الاستدلال بالنعم وفق تسلسلٍ منطقي؛ إذ ابتدأ بذكر المتنعم بالنعم نفسه وهو الإنسان، فقدم بذكر خلقه، وأعطاه الأهمية والأولوية، ثم ذكر النعم المسخرة له[1].

ومن الأدلة على إمكانية البعث وطرق الاستدلال الواقعية الحسية عليه: (ظاهرة النوم واليقظة) باعتبارهما نموذجًا متكررًا للموت والحياة للإنسان؛ لأن النوم هو في الحقيقة موت أصغر؛ إذ إن كلًّا منهما عبارة عن انسحاب من الحياة وتوقف الأعضاء عن أداء مهامها، على درجات متفاوتة بينهما، واليقظة شبيهة بالبعث؛ إذ إن كلًا منهما يعني عودة الأعضاء إلى أداء وظائفها مع اختلاف بينهما في الدرجة.

وجاء هذا الاستدلال في مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٠-٦٢].

آيات وإن كانت خبرًا من الله تعالى عن قدرته وعلمه، فإن فيها احتجاجًا على المشركين به الذين كانوا ينكرون قدرته على إحيائهم بعد مماتهم، وبعثهم بعد فنائهم[2]. فدلت بذلك على إمكان البعث والحشر؛

(١) انظر: آيات الأنواء الجوية في القرآن، أحمد عامر سلطان، ص ١٢١.

(٢) انظر: جامع البيان ١١/ ٤٠٦.

لأن النشأة الثانية منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم في أن من قدر على أحدهما فهو قادر على الأخرى، ولذلك ناسب تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

أي: في معرفة حقيقة ما بين الموت والحياة واليقظة والنوم من المناسبة، فإذا جهلنا حقيقة النوم وكيفية حصوله رغم بساطته ورغم تعاقبه والتصاقه بحالنا، فمن باب أولى ألا ندرك سر الإحياء وحقيقته، فكم في الكون أشياء لا يدرك العبد -على بساطتها- حقائقها لما أودع الله فيها من الأسرار والكوامن ما يقف الإنسان عندها مستسلمًا مستضعفًا نفسه مستصغرًا تفكيره مؤمنًا موقنًا، مع ما في ذلك من منافاة الإيمان بالغيب[١].

ومثل هذا الاستدلال جاءت آيات كريمات أخرى. والنبي صلى الله عليه وسلم حول بمنهجه الإصلاحي هذه الحقيقة إلى أمر واقعي يستشعره المرء المسلم كل يوم صباحًا ومساءً، فيتذكر الموت والبعث ولا يغفل عنهما البتة، بقوله صلى الله عليه وسلم آمرًا صحابته رضي الله عنهم فيما رواه البخاري عن أبي هريرة: **(إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك رب وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين)**[٢].

وعن البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أخذ مضجعه قال: **(اللهم باسمك أحيا، وباسمك أموت) وإذا استيقظ قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور)**[٣].

(١) انظر: منهج القرآن في إثبات عقيدة البعث بعد الموت، منظور بن محمد رمضان ص٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٣٢٠، كتاب الدعوات، باب التعوذ والقراءة قبل النوم، ٨/ ٧٠.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٧١١، كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، ٤/ ٢٠٨٣.

أبرز أحداث اليوم الآخر

أولًا: أحداث كونية:

١. تصدع الكون وتبديله.

فصل القرآن الكريم في مشاهد اضطراب النظام الكوني وتداعيه في اليوم الآخر، فعرض المشاهد الأولى له وشخصها بكل دقةٍ للسامع تشخيصًا بينًا دقيقًا، وصور حال الأرض والسموات حينها، وكيف تتبدل صورتهما وتتغير عما هي عليه في الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وذكر ما يحل بالكون من خرابٍ ودمارٍ وتغيرٍ لمعالمه، وسنحاول جهد الإمكان عرض هذه المشاهد بحسب وقوعها وترتيبها الزمني، وإن كانت بعض هذه المشاهد متداخلةً فيما بينها، ومن أولى المشاهد التي تحصل ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ١-٧].

فهذه آياتٌ تصور حال الكون، وما يجري فيه من تغيرٍ واضطرابٍ عند قيام الساعة، صورةٌ كلها تهويلٌ وتفخيمٌ لهذا اليوم، والتهويل يتجلى من المطلع، إذ يبدأ بـ﴿إِذَا﴾ الشرطية؛ لشد ذهن السامع إلى ما بعدها مع حذف جوابها، وفي هذا الحذف تحقيقٌ لدلالة التهويل والتفخيم؛ إذ يترك لخياله ونفسه أن يذهبا في تخيله وتصوره كل مذهبٍ، وكأن هذا الجواب لا تحيط بوصفه الألفاظ والعبارات. ويبين سبحانه ما يحل على الأرض من دمارٍ عند وقوعها، فيقول مكررًا: ﴿إِذَا﴾ لزيادة التهويل والتفخيم في: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا﴾، فالأرض سترج حتى تتهدم الجبال الرواسي وتكون أثرًا بعد عينٍ، أي: أصبحت الجبال بعد هذا البس كالغبار المنثور المتطاير، تشبيهٌ زاد من تهويل هذا اليوم وفظاعته، وللدلالة على تحقق هذا الأمر بالرج والبس أكدت الأفعال بمصادرها في قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾، و﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾[1].

وهذا التحريك والتسيير للجبال جاء مرافقًا لمشهد اضطراب السماء وتموجها في موضعٍ آخر في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩-١٠].

مشهدٌ يصور السماء وهي تتموج وتضطرب، والجبال تتحرك من مكانها وتسير؛ لتئول إلى هباءٍ منبثٍ. وفي موضعٍ

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٨٤.

آخر نجد تشبيه الجبال الرواسي بعد هذا الرج والبس بالصوف المنفوش في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

فالجبال تصبح كالصوف المتناثر هنا وهناك، صورةٌ تشبيهيةٌ تبين هشاشة الجبال وتفتتها يوم القيامة حتى تغدو كالصوف المتناثر المتطاير. ومشهد نسف الجبال وبيان حالها تكرر في القرآن الكريم في أكثر من موضع.

وفي موضعٍ آخر نقرأ آياتٍ كريماتٍ تصف ضعف وهوان الدنيا التي ما إن ينفخ في الصور حتى تذهب زينتها وتنتهي، وتهدم معالمها وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣-١٦].

آياتٌ كريماتٌ تنقل مشاهد اليوم الآخر وتركز على تصوير أحداثه لا ذكر محدثه، حتى ليخيل للمرء أن هذه الأشياء منقادة انقيادًا إلى سرعة الاستجابة للفعل، فتنخلع الأفئدة وترتعد الفرائص من هول ما يحدث آنذاك ترهيبًا وتخويفًا[1].

وتتنوع مشاهد الاضطراب الكوني في تصوير حال السماء والأرض، ويلاحظ أن أكثرها بدأ بـ ﴿إِذَا﴾ الشرطية مع حذف جوابها للاهتمام بما بعدها، وشد ذهن السامع إليها، مع تقديم المسند إليه بعدها، هذا التقديم الذي يحدث تهويلًا قد لا نجده في تأخيره، ويهز المتلقي ويلفته إلى أمرٍ غريبٍ لم يحصل مثله في الدنيا، فالسماء لم يسبق لها أن انفطرت أو انشقت، ولا الكواكب اندثرت أو انكدرت، ولا البحار سجرت أو فجرت، وغيرها من الأحداث الغريبة غير المألوفة[2].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١-٥].

وبالأسلوب نفسه نجد أن مشهد الخراب يأتي على الكواكب والبحار في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ١-٣].

ويتوسع القرآن في بيان مشاهد التغير والخراب في الكون في قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨

(١) انظر: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، أحمد محمد سعد، ص٢٦٥.

(٢) انظر: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، حميد أحمد عيسى العامري، ص ٨٢.

﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١-١٤].

فهذه آياتٌ تصور ما يحل بالكون من اضطرابٍ وتحولٍ يمس كل أركانه، ذلك التغير العنيف المتمثل في طمس الأنوار، واندثار النجوم، وتسيير الجبال، وتفجير البحار وغيرها من صور الخراب الذي شمل كل شيءٍ في الأرض والسماء.

وتتغير الألفاظ ويبقى الأسلوب نفسه في عرض مشاهد الاضطراب في هذا النظام في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١-١٥].

فالآيات تصور مشهد الاضطراب في النظام الكوني، المتمثل في تلك الحركة العنيفة التي تجتاح كل شيءٍ، وتثير كل شيءٍ، فتطمس النجوم، وتنشق السماء، وتنسف الجبال، فتتلاشى الثوابت، ويحل الروع محل الأمن في الأرض، والصخب محل السكون.

٢. النفخ في الصور.

من مشاهد الأحداث الكونية النفخ بالصور فيكون البعث والنشور بعدها. والصور قرن كالبوق، يأمر الله تعالى إسرافيل عليه السلام أن ينفخ فيه النفخة الأولى وهي نفخة الصعق، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم يأمره أن ينفخ النفخة الثانية وهي نفخة البعث، فإذا الخلائق قيام ينظرون، ويمثل البعث والنشور أول مراحل اليوم الآخر.

وقد تنوعت مشاهد البعث في التعبير القرآني فبينت مشهد النفخ في الصور ومشهد بعث الناس من قبورهم استعدادًا لحسابهم، مع وصف حال الناس وهم يستقبلون النداء والتركيز على حال الكافرين حينئذٍ، والنفخ في الصور هو أول مراحل اليوم الآخر، والصور هو الناقور كما سماه الله تعالى في قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨].

ومما جاء في بيانه قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

وهذه هي النفخة الأولى التي تقضي على الخلائق كلها إلا ما شاء الله تعالى فبعد أن

يأمر الله تعالى الملك إسرافيل عليه السلام بالنفخ الأول في الصور فينفخ فيه، فعندها يهلك جميع الناس والجن والحيوانات على وجه الأرض، وبذلك تجمع الأرض وتضم في طياتها وفي بطنها وعلى ظهرها جميع أحيائها أمواتًا لا حي فيهم.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه النفخة المهولة بأكثر من تعبير ووصف منها النفخة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣].

ومنها الصيحة في قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩].

ومنها الراجفة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦-٧].

والزجرة في قوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [النازعات: ١٣].

ثم تأتي بعدها النفخة الثانية بعدما يشاء الله بذلك بعد الأربعين، ويصف فيه الحق تعالى بعث الناس ونشورهم عند سماع النفخ في الصور في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥١-٥٣].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤].

وغيرها. فما هي إلا نفخة واحدة والكل واقف: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: ٢١].

فبعد النفخ الثاني في الصور تعود الأرواح إلى أجسادها، ويحيا الناس، ويخرجون من قبورهم ويقومون لله رب العالمين للحشر والحساب. هذه النفخة الشديدة على الكافرين -كما سيأتي بيانه- والذي عبر عنه القرآن بـ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨-١٠].

«والنقر في الناقور هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور، ولكن التعبير هنا أشد إيحاءً بشدة الصوت ورنينه؛ كأنه نقرٌ يصوت ويدوي، والصوت الذي ينقر الآذان أشد وقعًا من الصوت الذي تسمعه الآذان، ومن ثم يصف اليوم بأنه عسير على الكافرين»[1].

٣. الإنبات من القبور.

بعد أن بينا فيما سبق المراحل التي تسبق الإنبات من القبور، والتي تتمثل في تداعي الكون والنفخ في الصور، تطالعنا آيات كريمات تبين الكيفية التي يخرج بها الناس من قبورهم لأرض المحشر؛ لاستقبال حسابهم بعد النفخة الثانية، وقد ذكر ذلك في عدد من الآيات المباركات متخذًا من

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٥٥.

التشبيه والاستعارة أدوات في التعبير عن ذلك، راسمًا لنا صورة مادية تتجسد فيها عناصر الدهشة والإسراع والذهول من هول ما يرون. والناظر في أغلب المواضع التي ذكرت فيها هذه الكيفية يجد أن التعبير القرآني يركز في أكثرها على الكافرين ومنكري البعث.

قال تعالى واصفًا هذا الخروج: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥١-٥٢].

فبعد النفخة الثانية يخرج الناس وينبتون من قبورهم كما ينبت البقل كما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**ما بين النفختين أربعون) قال: أربعون يومًا؟ قال: (أبيت)، قال: أربعون شهرًا؟ قال: (أبيت)، قال: أربعون سنةً؟ قال: (أبيت)، قال: (ثم ينزل الله من السماء ماءً، فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة)**[1].

وينقسم الناس إلى صنفين: صنف يقول: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ وصنف يقول: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ويخرجون حفاةً عراةً غرلًا خائفين ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾[القلم: ٤٣].

وهذا ينبئ أنهم يخرجون من القبور في كرب شديد وهول عظيم مفزع.

وقد تناولت آياتٌ عديدةٌ من القرآن الكريم أحوال الناس وطريقة بعثهم، وصورهم، حركاتهم وقسماتهم بكل دقةٍ تتناسب مع هول ذلك اليوم وشدته، تلك الحركات الدالة على الهول والفزع والاندهاش مما رأوه من اضطراباتٍ كونيةٍ، وأهوالٍ حلت بالأرض وبهم بعد البعث، راسمةً صورهم بدقةٍ مما يجعل المتلقي وكأنه يعيشها، مركزةً على مشاهد الكافرين من انكسار أبصارهم وخشوعها ذلًا وهوانًا، وحركاتهم التي تثير الفزع والتخوف، ومقابلتهم بأحوال المؤمنين آنذاك في بعض المواضع.

ومن آيات القرآن في بيان الخروج من القبور قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦-٨].

فالآيات تصور مشهد بعث الكافرين المنكرين للآخرة من قبورهم وعليهم ثياب الذل والهوان، مسرعين إلى الداعي رغم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٩٣٥، كتاب التفسير، باب (يم ينفخ في الصور)، ٦/ ١٦٥.

أنوفهم. مشهدٌ مختصرٌ سريعٌ، لكنه شاخصٌ متحركٌ، مكتمل السمات والحركات، وهو متناسقٌ مع أول السورة: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

ومع الجو والإيقاع العام للسورة، مشهدٌ يصور هذه الجموع الخارجة من قبورها في لحظةٍ واحدةٍ كأنها جرادٌ منتشرٌ[١].

ومع أن المؤمنين والكافرين يتساوون في هذا الخروج من الأجداث، من تملك الهول منهم حينها حتى يؤمن الله تعالى من يشاء من المؤمنين في أرض المحشر، وهذا ما يدل عليه حذف مفعول الفعل ﴿يَدْعُ﴾؛ لإفادة العموم. وخص الكافرون بهذا الخطاب؛ تهديدًا لهم وتوبيخًا. والداعي هو إسرافيل عليه السلام يدعو الناس ويناديهم للقيام إلى الحساب بعد النفخة الثانية، هذا المشهد المهول المفزع الذي يدل عليه التنكير في قوله تعالى: ﴿شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾، أي: شيء عظيم مهول[٢].

وقد تعاضدت الفنون البيانية من تشبيهٍ ومجازٍ وكنايةٍ في رسم صورة هؤلاء المجرمين وهم يقومون للحساب منخذلين مذعورين في ذلك اليوم العصيب؛ إذ يبعثون من قبورهم منكسي رءوسهم، أبصارهم إلى الأرض لا يرفعونها ذلًا وهوانًا، فالخشوع في الآية «كنايةٌ عن الذلة والانخزال؛ لأن ذلة الذليل، وعزة العزيز تظهران في عيونهما»[٣].

وهذا تصويرٌ لهم في غاية الذل والانكسار، صورةٌ تبين حالهم المهين في الآخرة بعد أن كانوا يرفعون رءوسهم تكبرًا على المؤمنين في الحياة الدنيا، وللاهتمام بإظهار هذه الصورة والتركيز عليها قدم الحال ﴿خُشَّعًا﴾ على عامله ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ تقديمٌ صور غاية ذل الأبصار وخشوعها، ولو تأخر الحال، لفات هذا التصوير الفني لهيئة الأبصار[٤].

وفي «الجراد مثلٌ في الكثرة والتموج، يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاءوا كالجراد منتشر في كل مكانٍ؛ لكثرته»[٥]، تشبيهٌ يصور حالهم على كثرتهم وتماوجهم وهم حيارى فزعين منتشرين هنا وهناك يستتر بعضهم ببعضٍ من شدة الخوف.

وهذا التشبيه يتناسب مع آخر السورة نفسها في قولهم في الدنيا: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، وما أشبه الجيش الذليل المنهزم بالجراد المنتشر هنا وهناك بعضه فوق بعضٍ.

(١) انظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب ص٥٩.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٢٢.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٣٢.
(٤) انظر: التقديم والتأخير في القرآن الكريم ص ١٢٧.
(٥) الكشاف ٤/ ٤٣٢.

وأوثر التعبير بالانتشار مع جعله اسم فاعل في قوله تعالى: ﴿مُّنتَشِرٌ﴾؛ لإبراز صورة الجراد وشدة اندفاعه عند بداية انتشاره، وتلك صورة المجرمين عند خروجهم ﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾. ومما عمق معنى الذل والهوان المضروب عليهم كونهم ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ فهم يمشون وجلين بسرعةٍ مشية الخائف المذعور إلى داعيهم، وهم يقولون: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

وبهذا تواشجت فنون البيان في تقريب صورة بعث الكافرين من قبورهم إلى الأذهان بتشبيههم بالجراد المنتشر وهم أذلاء منكسرين عليهم ثياب الفزع والخوف. وفي «إسناد القول ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ إلى الكفار تلويحٌ بأنه على المؤمنين ليس كذلك»[1].

فهم ليسوا في تلك المرتبة من الفزع والشدة، بل هو يسيرٌ عليهم بأمر الله تعالى. ومما يدل على عسر ذلك اليوم على الكافرين خاصةً دون المؤمنين الموحدين قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[المدثر: ٨-١٠].

وإذا انتقلنا إلى موضع آخر نجد أن التعبير القرآني يصور الكافرين عند بعثهم من قبورهم للحساب بسخريةٍ وتهكم في قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾[المعارج: ٤٢-٤٤].

فهذه آياتٌ ترسم صورةً تهكميةً لهؤلاء الكافرين عند بعثهم للحساب، صورةٌ تتناسق مع ما كانوا عليه في الدنيا حين يسرعون إلى الأنصاب يعبدونها، فجاء التعبير بتصوير حالهم في الآخرة كذلك؛ ليكون التعبير أشد إيغالًا في السخرية والتهكم[2].

ومثل هذه الآيات أيضًا تطالعنا آياتٌ كريماتٌ في وصف البعث في معرض تسلية النبي صلى الله عليه وسلم من تكذيب الكافرين بدعوته صلى الله عليه وسلم؛ لتقرر حقيقة البعث، وتصور حال خروج منكريه حينها، في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤١-٤٤].

آيات تصف حال الناس يوم ينفخ في الصور وينادى فيخرج الناس من قبورهم، ولتهويل هذا اليوم وحال الناس فيه وتفظيعه حذف مفعول ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ إيجازًا، والتقدير: واستمع لأحوال الآخرة التي أخبرك بها[3].

(١) روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٨٠.

(٢) انظر: مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب ص١٨٧.

(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي

وقوله: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾، والمراد بالحق: الوعد الصادق وهو الحشر، وسمي حقًا؛ إبطالًا لمزاعم المشركين بأنه افتراءٌ واختلاقٌ، إذ كانوا يسمونه سحرًا، ويعدونه خيالًا، فيعلمون آنذاك أن الواقع قد يطابقه، فكان حقًا فإنه قد طابقه الواقع، فكان الإخبار به صدقًا.

إذا كانت المواضع السابقة جاءت ردًا على المشركين في إثبات البعث وكيفية قيامهم من القبور إلى الداعي، فإن هناك ثمة آياتٍ تصور الناس جميعًا عند بعثهم، وهي وإن كانت جوابًا عن سؤال الكافرين عن البعث، إلا أن الجواب كان عامًا في بيان بعث الناس كلهم.

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٧-١٨].

وأتت هذه الآيات تفصيلًا للإجمال الوارد في أول السورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١-٣].

فجاء التكرار ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤-٥].

لردعهم وتهديدهم وبيان أنهم سيرونه حقيقة وسيعلمون حينها أنه حقٌ، وأوثر التعبير في الآية بـ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ دون قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ للدلالة على أنه «كان في تقدير الله تعالى وحكمه حدًا توقت به الدنيا وتنتهي عنده، أو حدًا للخلائق ينتهون إليه»[1].

فهو واقعٌ لامحالة ولكن شاءت حكمته تأخيره إلى وقتٍ معلوم.

ومن الآيات التي تصور حالهم وضعفهم وهوانهم بتشبيههم في أرض المحشر بالفراش المبثوث وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ١-٤].

فالناس حينئذ يكونون كالفراش المتفرق، المنتشر هنا وهناك، يموج بعضهم في بعضٍ من شدة الاضطراب والفزع، فشبه الناس بالفراش المتطاير في كثرتهم، وانتشارهم، وذلتهم، وضعفهم، واضطرابهم[2].

وفي مواضع أخرى تأتي لمحاتٌ سريعةٌ لأحوال الناس في ذلك اليوم العصيب. وفي المعنى نفسه نجد آيات كريمات أخرى تصور حالهم.

ثانيًا: أحداث في الحشر:

من أحداث اليوم الآخر الحشر وأحوال الخلق فيه حينها، وقد تناولت آياتٌ عديدةٌ من القرآن الكريم طريقة الحشر، وصورهم

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٨٧.
(٢) انظر: الإبداع البياني ص٤٢٧.

٩/ ٥٤٢.

في أرض المحشر، بكل دقةٍ وبيان، تلك الطرق الدالة على مكانة كل صنف منهم حينئذٍ، ومن ذلك حشر المتقين والمجرمين في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥-٨٦].

فالآيتان تصوران مشهد حشر المؤمنين والكافرين وحالهم، فالمؤمنون المتقون يحشرون ﴿وَفْدًا﴾ مكرمين إلى جنة ربهم بعزة وكرامة، أما الكافرون المجرمون فيساقون سوقًا شديدًا إلى جهنم، عطاشًا محرومين من الماء، كالبهائم العطاش[1].

وبهذا الأسلوب قابل بين مصير الفريقين بأبلغ بيان. إذ عدى ﴿نَحْشُرُ﴾ بـ﴿إِلَى﴾ تعظيمًا وتبجيلًا للمؤمنين، وذكر صفة الرحمة ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ التي خص المؤمنين بها إكرامًا لهم؛ إذ إن لفظ الحشر يوحي بالجمع من أماكن متفرقة وأقطار شاسعة على سبيل القهر، فجاء لفظ: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ مؤذن بأنهم يحشرون إلى من يرحمهم، كما أن لفظ الوفد مشعرٌ بالإكرام والتبجيل كما يفد الوفاد إلى الملوك منتظرين الكرامة عندهم، وفي جانب المجرمين استخدم لفظ السوق الذي فيه إزعاج، ومما زاده تفظيعًا هو تعديته بـ﴿إِلَى﴾ تبشيعًا لحالهم ومكانهم[2].

فلا تخفى جمالية المقابلة في اختيار الألفاظ المناسبة لكلا الحالتين. وحشر المؤمنين والكافرين إلى مصيرهم تكرر في سورة مريم.

ومن صور حشر الكافرين المجرمين (حشرهم زرقًا) كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٢-١٠٣].

يصور المشهد المبارك المجرمين وهم يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم أو زرق العيون من شدة العطش أو من العمى، يتخافتون بالحديث لا يرفعون به صوتًا من الرعب والهول والرهبة المخيمة على ساحة الحشر، وفيم يتخافتون؟ إنهم يحاولون تقدير المدة التي قضوها في الدنيا أو في القبور، فيقولون لم نلبث إلا عشر ليال، ويقول أصوبهم رأيًا: ما لبثتم غير يوم، فيستوي في ذلك التخبط الناتج عن المفاجأة الجاهلون والعالمون[3].

ومن صور حشر الكافرين المجرمين (حشرهم عميًا على وجوههم) لا كما كانوا يمشون في الدنيا على أرجلهم.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ

(١) انظر: الجامع لإحكام القرآن ١١/ ١٥٣.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٢، البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٢٩٨.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٣٠٤، ٣٠٦، مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب ص١٠٤.

﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٧-٩٨].

وغيرها من الآيات. آيات تصور الكافرين المجرمين وهم يحشرون بذلٍ وهوانٍ على وجوههم عميًا لا يرون، وبكمًا لا يتكلمون، وصمًا لا يسمعون، يحبس أولهم على آخرهم، فيساقون إلى النار مجتمعين. وحشر الكافر أعمى يمشي على وجهه جاء في حديث أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: **قال رجلٌ: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: (أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟)**[1].

ومن صور حشر الكافرين المجرمين (حشرهم مع أوثانهم وشياطينهم وهم جاثون على الركب) وذلك في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٨-٦٩].

وقوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

فرب العزة سبحانه وتعالى أقسم بنفسه الكريمة أنه يحشر الكافرين منكري البعث، وأمثالهم مع الشياطين ومعبوداتهم الباطلة التي كانت تضلهم في الدنيا، وأنه يحضرهم حول جهنم جاثين على ركبهم ذلًا وهوانًا.

وقد رسم القرآن الكريم في مواضع أخرى متفرقة صفات الناس وقسماتهم في أرض المحشر، وجوههم، أبصارهم، لسانهم، وغيرها، ومما جاء في بيان وجوه الناس بشكل عام تصويرها وهي قد ذلت وخضعت لله تعالى قوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

ومنها أنه حينئذ تبيض وجوه وتسود وجوه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦-١٠٧].

فالآيتان تصوران مشهدًا من مشاهد القيامة؛ إذ نرى فيه مظهرًا عجبًا، نرى وجوهًا مبيضة ووجوهًا مسودة وهذا مشهدٌ حسيٌّ، ولكنه منبعثٌ عن تأثر نفسي، ألقى ظله على هذه الوجوه فابيضت، وعلى تلك فاسودت، وهذا وذلك زيادة في العذاب والنعيم وفي

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٥٢٣، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، ٨/ ١٠٩.

التحقير والتكريم[1]. وخص الوجه بالذكر دون سائر الجسد؛ لأنه أول ما يرى من الإنسان، ولأنه أشرف الأعضاء في الجسد.

ولهذا نرى التركيز عليه في وجوه الكافرين خاصة مثل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠].

وفي سورة عبس نعاين صفاتٍ أخرى في الوجوه، وجوه المؤمنين ووجوه الكافرين، زاد فيها على بياض الوجوه النور والإشراق والضحك والاستبشار مما دل على الأمن والطمأنينة ذلك في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩].

وأضاف إلى وجوه الكافرين المسودة غبارا دالًا على الكآبة واليأس والخوف في قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٠-٤٢].

وفي آيات أخرى نرى تقابلًا بين وجوه المؤمنين ووجوه الكافرين من حيث النظر إليه سبحانه وتعالى وعدمه في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٥].

هذه المقابلة بين الفريقين التي أظهرت البون الشاسع بينهما، فالمؤمنون وجوههم مشرقةٌ مبتسمةٌ، وهذا يدل على الأمن والطمأنينة، والكافرون وجوههم عابسةٌ مظلمةٌ، وهذا يدل على خوفهم وذعرهم ويأسهم، فهم فريقان مختلفان، وهذا ما يدلُّ عليه التنكير المستفاد منه التنويع في ﴿وُجُوهٌ﴾.

وفي الآية تكريم عظيم من الله لعباده المؤمنين في أرض المحشر يوم القيامة، فهو يزيد لهم الفضل والنعم بعد تبييض وجوههم في أرض المحشر بالنظر إلى وجهه الكريم عيانًا كما ترى الشمس في النهار إذا كان الجو صحوًا كما دلت على ذلك النصوص التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة.

وهكذا رسم القرآن الكريم في الآيات السابقة بمجموعها صورة تقابلية بين بياض ونضارة وجوه المؤمنين، وسواد وكلاحة وقتامة وجوه الكافرين، وفي الجمع والموازنة بينها يتجلى البون الشاسع بين منزلة المؤمنين والكافرين في أرض المحشر، ففريق المؤمنين يحشرون في أجمل صورة وأكرمها، وقد ملأت الطمأنينة والفرحة نفوسهم -فالبياض علامة لهم يوم القيامة- فوجوههم بيضاء مشرقة ضاحكة مستبشرة إلى ربها ناظرة.

(١) انظر: مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب ص ٢٠٣.

بخلاف الكافرين الذين يحشرون سود الوجوه في أبشع صورة وأذلها، فوجوههم سوداء مظلمة عليها غبرة ترهقها قترة لا تنظر إليه سبحانه بل هم في النار خالدون.

ومما جاء في وصف الكافرين في أرض المحشر قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

آية ترسم صورة المجرمين وهم منكسو الرءوس يوم القيامة، لا يرفعونها من عظيم الخزي والذل الذي يشعرون، ويحكي بعد ذلك قولهم الدال على إقرارهم بعد أن شاهدوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم بأن الآخرة حق وما جاء به رسل الله عليهم الصلاة والسلام حق، فيتمنون أن يعيدهم الله إلى الدنيا لتكون الفرصة الأخيرة لهم، ولكن بعد فوات الأوان.

وقد صور القرآن الكريم أبصار الكافرين في أرض المحشر، صورها وهي ذليلة مهانة، ومما جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦-٨].

وقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢-٤٤].

وقد سبق بيان هذه الآيات.

وقد صور القرآن الكريم حالهم وملابسهم ووجوههم معًا، حالهم ذليل، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝٤٨ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٤٨-٥١].

وصورهم وهم صامتون لا يتكملون في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٩].

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾ [النبأ: ٣٧-٤٠].

مشهدٌ يصور حال الهلع والذعر مما يرى، والندم على ما قدم، عندما يرى قضاء الله تعالى في البهائم قبل حسابهم فيتمنى أن

يكون ترابًا كالبهائم لسوء ما قدمت يداه من خزيٍ ينتظره حسابًا وجزاءً.

وإذا انتقلنا إلى موطنٍ آخر نجد آياتٍ تصور الهول الذي يعم كل إنسانٍ في أرض المحشر حتى يفصله عن محيطه ويجعله يفر من كل قريبٍ وحبيبٍ له في الدنيا، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٣-٤٢].

مشهدٌ يصف أهوال القيامة التي تصل إلى مشاعر الإنسان الوجدانية المرتبطة بأقرب الناس إليه، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هول ذلك اليوم فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(يحشر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غرلًا) قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعًا ينظر بعضهم إلى بعضٍ؟ قال صلى الله عليه وسلم: (يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعضٍ)**[1]؛ لأن ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، فالكل مشغولٌ بأمره ولا يدري عن حال غيره شيئًا.

ويلاحظ أنه تدرج في ذكر من يفر منهم المرء يوم القيامة على طريقة الترقي في القرب والمحبة؛ مبالغةً في وصف الهول والفزع الذي يعيشه، فـ«ذكر فرار الإنسان من أحبابه، ورتبهم ترتيبًا في الحنو والشفقة، فبدأ بالأقل، وختم بالأكثر؛ لأن الإنسان أشد شفقةً على بنيه من كل ما تقدم ذكره، وإنما يفر منهم؛ لاشتغاله بنفسه»[2].

وقد اقتضى السياق هذا الترتيب، في حين نجد أنه في موضع آخر بدأ بما انتهى منه هنا وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١٠-١٤].

ومما لاشك فيه أن سبب تقديم الأخ على الأم والأب والصاحبة والابن في سورة عبس، وتقديم الابن على الصاحبة والأخ والفصيلة (الأم) في سورة المعارج، كان لأمرٍ خاصٍ يقتضيه السياق، جعل النظم في الترتيب مغايرًا في الموضعين، وهو يقوم على اختيارٍ معنويٍ جماليٍ خاصٍ، ويهيئ لتصورٍ معينٍ، ويحقق كل شروط الفن البلاغي.

وسبب ذلك أن المقام في سورة عبس مقام فرارٍ وهربٍ من الأحبة انشغالًا بالنفس

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٨٥٩، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر، ٤/ ٢١٩٤.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي ٢/ ٤٥٤.

يوم الفزع الأكبر، والإنسان يفر من الأباعد أولًا ثم ينتهي بألصق الناس به، فجاء الترقي من الأدنى إلى الأعلى؛ لأنه يناسب فكرة الفرار والنكوص عن مساعدة أقرب الأقربين - انشغالًا بالنفس- من شدة الهول ولذلك تأخر ذكر البنين؛ لأنه لو بدأ بذكرهم، لما احتاج بعد ذلك إلى ذكر غيرهم، ولأن الوصف بالتخلي عن نجدة الأبناء، والانصراف عنهم هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه التعبير عن مدى انشغال الإنسان بهمومه الخاصة ومشكلاته الذاتية عن كل ما حوله، فهذا وصفٌ لما ينتاب المرء من الذاتية المطلقة والاستغراق المطلق بالقلق الشخصي على المصير في ذلك اليوم العصيب، في حين نرى أن السياق في سورة المعارج غيره في سورة عبس؛ إذ يؤتى بالمجرم؛ ليلقى جزاء عمله في النار.

فالمقام مقام البحث عن المنقذ والمعين والمفتدي، والمجرم يود النجاة بكل سبيلٍ ولو أدى ذلك إلى أن يبدأ بأقرب الناس إليه، فكان الترتيب على سبيل التدلي فبدأ بالأقرب كما تعول عليه النفس، فالابن فالزوجة، فالأخ فالعشيرة، ثم من في الأرض جميعًا.

وهذا الترتيب فضلًا عن أنه تعبيرٌ يناسب من حيث تدرجه حركة الكافر النفسية في ذلك اليوم، فإنه تعبيرٌ عن اشتعال الحيرة واتساعها في قلب الكافر، وتفاقم التشتت الذي يعتريه، وهذا ما يرمز إليه الانتقال من الأدنى إلى الأبعد عاطفيًا ومكانيًا، ويدل أيضًا على العجز عن طلب المعين، والاضطراب في التماسه اضطرابًا شديدًا باتساع دائرة البحث عنه درجةً بعد درجةٍ حتى تشمل كل الموجودات في ذلك اليوم العصيب[1].

وثمة أمورٌ أخرى اقتضت أن يكون الترتيب مغايرًا في سورة المعارج، منها أن المفتدي هو (مجرم) وليس إنسانًا اعتياديًا، والمجرم مستعدٌ لفعل أي شيءٍ؛ للنجاة بنفسه ولو كان الفداء بأحب وأقرب من لديه؛ ليضعه مكانه في النار، بل لا يهمه لو افتدى بالناس كلهم بذنبه، ومنها أن البدء بأقرب الناس يدل على هول العذاب فوق التصور مما يجعله يفتدي هكذا، ومنها أنه ذكر ما يناسب هذه القطيعة بالافتداء وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠].

والحميم: القريب، فبدأ بالأقرب فالأبعد[2].

(١) انظر: بلاغة العطف في القرآن الكريم، عفت الشرقاوي ص ١٠٥-١١٠.

(٢) انظر: الجملة العربية تأليفها وأقسامها، فاضل صالح السامرائي ص ٤٧-٤٨.

ثالثًا: أحداث عند الحساب:

عرض القرآن الكريم لمشاهد الحساب وأحداثه بدءًا من الميزان الذي توزن فيه أعمال المرء كلها، ومن ثم تطاير الصحف والعرض، انتهاءً بندم الكافرين والمنافقين وجدالهم بعد هذه الأحداث الفاصلة التي تنتهي بأمرهم إلى الخلود في نار جهنم.

١. الميزان.

ينصب يوم القيامة ميزانٌ حقيقيٌّ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «له لسانٌ وكفتان لحساب الخلق على ما قدموه من أعمالٍ صالحةٍ وطالحةٍ، فيؤتى بالأعمال الصالحة على صورةٍ حسنةٍ جميلةٍ، وبالأعمال السيئة على صورةٍ قبيحةٍ، فتوضع كل واحدةٍ منهما في كفة الميزان، وعلى هذا تكون صحيفة المرء بعدها»[(١)].

ومن المواطن التي جاء فيها ذكر الميزان قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

تصف الآية الكريمة القضاء العادل في اليوم الآخر بأنه يوازن بين أعمال العباد موازنة دقيقة فيحاسب كلا على أعماله، والمعنى: أن الموازين يوم القيامة عدلٌ لا يظلم بها أحدٌ شيئًا.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: و«الأكثر -يعني: من العلماء- على أنه إنما هو ميزانٌ واحدٌ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه»[(٢)].

ووصف الله تعالى الموازين بالقسط؛ لأن الميزان قد يكون مستقيمًا وقد يكون بخلافة، فبين أن تلك الموازين تجري على حد العدل والقسط، وأكد ذلك بقوله: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أن أعمال العباد توزن في اليوم الآخر من حسنات أو سيئات، فمن ثقلت موازينه بأن رجحت حسناته على سيئاته فاز ودخل الجنة برحمته تعالى، ومن رجحت سيئاته على حسناته هلك ودخل النار بعدله تعالى، وإن كان المؤمنون على تفاوت درجاتهم في الأعمال هم من أهل الجنة، وإن عذبوا على بعض ذنوبهم بمقدارها.

وفي وزن أعمال العباد جاءت آيات عدة، منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾[المؤمنون: ١٠١-

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٨٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٠٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٤٥.

١٠٤].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

ومنها أيضًا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾[القارعة: ٦-١١].

فجاءت الآيات الكريمات؛ لتعرض وزن أعمال الناس في الميزان، وتفصل في حالهم إلى حالٍ حسنةٍ لأهل السعادة المعبر عنهم بـ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾، وحال فظيعة لأهل الشقاء المعبر عنهم بـ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾[1].

فكان في التفصيل مقابلةٌ بين الصنفين الشقي منهم والسعيد، وبيان منزل كل فريقٍ منهم، فالسعداء ترجح حسناتهم على سيئاتهم، وتثقل في الميزان وتكون خاتمتهم إلى الجنان، أما الأشقياء الذين لا تقوم بهم حسناتهم وترجح سيئاتهم فيكون مآلهم إلى النار.

وفي مواضع أخرى يصور القرآن الكريم دقة الميزان في وزنه حتى الذرة المتناهية في الصغر قسطًا وعدلًا من الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦-٨].

فهذه آياتٌ تصف دقة الميزان الرباني في اليوم الآخر، الناس يمضون ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرقين بحسب أعمالهم ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ خيرًا كانت أم شرًا، يرونها مكتوبةً في صحائفهم، فيعطون كتبهم بحسب أعمالهم بيمينهم أو شمالهم، ويرونها وهي توزن في الميزان.

وهذا ما يدل عليه التفريع بعدها: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ «انتقالًا للترغيب والترهيب بعد الفراغ من إثبات البعث والجزاء، والتفريع قاضٍ بأن هذا يكون عقب ما يصدر الناس أشتاتًا»[2].

وبعض الخلق لا يقيم لهم الرحمن وزنًا في اليوم الآخر، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

(١) انظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ٥١٣.

(٢) المصدر السابق ٣٠/ ٤٩٤.

وقد جاء بيان هذه الآيات الكريمات في السنة النبوية الشريفة فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضةٍ، وقال: اقرءوا:** ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾)[1].

٢. **تطاير الصحف.**

تطالعنا آياتٌ في التعبير القرآني تعرض لمشاهد من الحساب، وهي تطاير الصحف إلى أصحابها، تلك الصحف التي يكتب فيها ما قدم ابن آدم في حياته، وقد جاءت هذه المشاهد؛ لتقابل بين صنفين من الناس؛ صنفٌ يؤتى كتابه بيمينه، وآخر يؤتى كتابه بشماله، وحال كل واحدٍ منها بعدها.

ومن هذه المشاهد ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾[الحاقة: ١٨-٣٧].

فهذه آياتٌ تصف الحساب وموقف الناس عنده؛ إذ ينقسمون إلى قسمين، منهم من يؤتى كتابه بيمينه، فيسعد أيما سعادة، ويفرح فرحًا كبيرًا، ومنهم من يؤتى كتابه بشماله، فيشقى أيما شقاوة، ويحزن حزنًا عميقًا، فريقان مختلفان في موقفٍ واحدٍ، يصورهما القرآن أدق تصويرٍ.

ومن مشاهد تطاير الصحف وإتيان الكتاب في اليمين أو الشمال أيضًا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾[الانشقاق: ٧-١٥].

جاءت هذه الآيات تفصيلًا للإجمال في قوله تعالى في أول السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، وهي تقابل بين صنفي الناس آنذاك، فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه وهو السعيد، ومنهم من يؤتى كتابه بشماله وهو الشقي. والحساب اليسير في الآية كنايةٌ عن عدم المؤاخذة على سيئاته، بل هو عرضٌ فقط يذكر فيه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٧٢٩، كتاب التفسير، باب (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه)، ٦/ ٩٣.

تعالى المؤمن بما عمل في الدنيا[1]. ثم يتجاوز عنه، فهو حسابٌ قليلٌ يسيرٌ كما دل عليه التنكير في قوله تعالى: ﴿حِسَابًا يَسِيرًا﴾. ويدل عليه أيضًا ما روي عن أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(من نوقش الحساب عذب) قالت: قلت: أليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ قال صلى الله عليه وسلم: (ذلك العرض)**[2]**، وفي روايةٍ أخرى: (ليس ذاك الحساب! إنما ذاك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب)**[3].

وبعد هذا العرض ينصرف إلى بيته وأهله في الجنة مسرورًا فرحًا. أما الشقي فسيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره؛ لأن «أيمانهم تغل إلى أعناقهم، وتكون شمائلهم وراء ظهورهم»[4].

وما أن يقرأ كتابه حتى يدعو على نفسه بالهلاك لسوء مصيره؛ إذ سيدخل جهنم. ومما جاء في بيان الصحف وتطايرها أيضًا قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١-٧٢].

٣. الشهادة على الخلق.

جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تبين أن هناك الكثير من الشهود على الإنسان في اليوم الآخر لإقامة الحجة عليه ولتكون دليلًا وشاهدًا على ما فعله في الحياة الدنيا، وربنا الرحمن تعالى لا يحتاج إلى من يخبره عن عباده أو يشهد عليهم بما فعلوه، فهو العالم تعالى بهم وبأعمالهم كما حكى عن نفسه العلية في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦].

وشهادة الرب تعالى على الإنسان في الدنيا تكفي على ابن آدم فهو أعظم شهيد وأجل شهيد تعالى، إلا أنه سبحانه من كمال عدله وإعذارًا لهم أقام عليهم الشهود بعد شهادته عليهم، ونوعهم وكثرهم؛ لإلزامهم الحجة والبينة، وهؤلاء الشهود كثر كما

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٢٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، رقم ٦١٧١، ٥/ ٢٣٩٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٨٧٦، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إثبات الحساب، ٤/ ٢٢٠٤.
(٤) معاني القرآن ٣/ ٢٥٠.

ذكرنا، أولهم ربنا الرحمن إذ يذكر الإنسان بما قدم في الدنيا ويقول له: ألم تفعل كذا وكذا؟ -كما جاء في الصحيح-. والآيات في شهادته تعالى على العباد كثيرة. ذكرنا بعضها في هذه الفقرة ومع هذا، فالإنسان بجحوده ينكر وينكر، فيزيد الله تعالى له الشهود من مخلوقاته عليه حكمًا وعدلًا -كما سيأتي-.

ومن الشهود على الخلق أيضًا بعد شهادة الله تعالى الملائكة بأصنافها كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[ق: ١٧-٢١].

أي: ملك يسوقه إلى المحشر وملك يشهد عليه بأعماله في الدنيا، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٩-١٢].

أي: ملائكة يكتبون ما كنتم تعملون في الدنيا غير مضيعينه، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

ومن هؤلاء الأشهاد الملائكة الذين شهدوهم وحفظوا عليهم ما كانوا يعملون في الدنيا صغيره وكبيره. ومنهم الكتاب الذي سجل كل صغيرة وكبيرة عليهم قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الجاثية: ٢٨-٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧-٤٩].

آيات تعرض لساحة العرض والحساب، وقد تجمعت فيها الخلائق كلها وتحشدت، وقد جثوا على الركب متميزين أمة أمة يرتقبون الحساب، ويجابهون بالجزاء وكل شيء قد كتب واستنسخ في كتاب دقيق ناطق الذي لم يترك عملًا صغيرًا أو كبيرًا إلا وأحاط به.

ومن الشهود على الخلق أيضًا الأنبياء والرسل كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ

﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾[النساء: ٤٠-٤٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[يونس: ٤٧].

يعني: إذا جاء الرسول في اليوم الآخر قضي بينهم وسماه الله تعالى شهيدًا كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[النحل: ٨٤].

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل: ٨٩].

وغيرها من الآيات. والآيات السابقات تدل بجموعها أنه تعالى في اليوم الآخر سيجمع الخلائق ويجيء بكل أمة ليشهد عليهم رسولها بما بلغ وبما أجابته به أمته حين دعاها إلى الله تعالى؛ لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل فيشهد عليها بالحق، فحينئذ يتمنون لو أنهم سووا بالأرض، وسويت بهم، فيكونون نسيًا منسيًا، حالهم كحال سائر البهائم، وذلك من عظيم ما يرون من الهول والشدة، وهيهات لهم ذلك.

ومن الشهود على الخلق أيضًا أمة محمد؛ إذ يجيء بها شاهدة على الأمم؛ لعدلها بعد أن تشهد الرسل على أقوالهم، لا تجد هذه الأمم حينئذ إلا تكذيب رسلها وإنكار تأديتهم للرسالة كما كانوا يكذبونهم في الدنيا، فتقوم الأمة الوسط أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله تعالى أيضًا: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

هذه الشهادة التي تأتي بعد تكذيب الأمم لرسلها كما سبق وقد جاء بيان ذلك صراحة في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعن أبي سعيدٍ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(يجيء نوحٌ وأمته، فيقول الله تعالى هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمدٌ صلى الله عليه وسلم وأمته، فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله -جل ذكره-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ والوسط: العدل)**[1].

ومن الشهود على الخلق أيضًا الأرض،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٣٣٩، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: (إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه)، ٤/ ١٣٤.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٢-٥].

فالأرض تشهد على الإنسان بما عمل على ظهرها بعد إنكاره فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]. قال: (أتدرون ما أخبارها؟) قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ وأمةٍ بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل عمل كذا في يوم كذا، فهذه أخبارها)[1].

فإذا أنكر الخلق كل الشهود السابقين وكذبوهم ولجوا في الخصومة، أقام الله عليهم شاهدًا منهم، فتشهد عليهم جوارحهم (سمعهم وأبصارهم وجلودهم) بما قدموا من أعمال في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النور: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[يس: ٦٥].

«وهكذا يخذل بعضهم بعضًا وتشهد عليهم جوارحهم، وتتفكك شخصيتهم مزقًا وآحادًا يكذب بعضها بعضًا، وتعود كل جارحةٍ إلى ربها مفردة، ويثوب كل عضوٍ إلى بارئه مستسلمًا، إنه مشهدٌ عجيب رهيب تذهل من تصوره القلوب»[2].

ومن شهادة الجوارح أيضًا قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ١٩-٢٣].

فالآيات الكريمات تصف حال العباد المنكرين للمكتوب في صحفهم من السيئات المطالبين بأن لا يكون الشاهد عليهم إلا من أنفسهم، فيختم الله على أفواههم فلا تستطيع أن تنطق بشيء ثم يأمر أعضاءهم أن تشهد عليهم بما عملوا. والكافرون اعتادوا على الكذب في الدنيا، وظنوا أنهم يستطيعون أن يحققوا عن طريقه فوزًا ونفعًا، وهكذا جاءت الآية؛ لتسد

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٠١٢، كتاب التفسير، باب من كتاب قراءات النبي، ٢/ ٢٨١.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٧٣.

عليهم هذا الباب الذي اعتادوا أن يدخلوا ويخرجوا منه.

فيوم القيامة يختم تعالى على أفواههم ويعقد ألسنتهم، وتترك الشهادة إلى غير اللسان من أعضاء جسمه، بعد أن رفض هذا الإنسان شهادة الناس والملائكة عليه، فتشهد عليهم أعضاؤهم على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم، وعلى غير ما كانوا ينتظرون؛ لأنهم كانوا عنها يدافعون ويكذبون في الدنيا، وبعدها تنقلب عليهم في الآخرة.

والناظر في الآية يرى أنه تعالى أسند الختم إلى نفسه في حين أسند الكلام والشهادة إلى الجوارح؛ لأنه لو أسندها إليه لكان هناك احتمال في أن يكون ذلك جبرًا وقهرًا، والإقرار بالإجبار غير مقبول، فنسبها إليها، فتشهد باختيارها لخالقها بعد ما يقدرها الله تعالى على الكلام؛ ليكون أدل على صدور الذنب منهم[1].

وثمة لطيفة في تقديم الاعتراف أو الكلام على الشهادة، وذلك لمناسبة الواقع فالعادة جرت بأن تسير الأمور في القضايا على وفق هذا النسق، الاعتراف أولًا، والشهود ثانيًا، وهذا ما بينته الآية الكريمة، وكذلك قدم؛ لأن دوره في هذه القضية أكثر فعالية وأبلغ دلالة من الشهادة، وبخاصةً عندما يكون هناك توافق بين ما يدلي به المعترف وما يدلي به الشاهد[2].

وقد جاء حديث في الصحيح يجمع أغلب هؤلاء الشهود على المخلوق عند إنكاره فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: **(ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يومٍ أو تبسم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا تسألوني من أي شيءٍ ضحكت؟) فقال: (عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يا رب، أليس وعدتني أن لا تظلمني؟ قال: بلى، قال: فإني لا أقبل علي شهادة شاهدٍ إلا من نفسي، فيقول: أو ليس كفى بي شهيدًا، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال: فيردد هذا الكلام مراتٍ، فيختم على فيه، وتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بعدًا لكم وسحقًا، عنكم كنت أجادل)**[3].

وبعد كل هؤلاء الشهود على الخلق في ساحة العرض والحساب، وبعد أن يرى المخلوق الحق، ويتبين له أن الله لا تخفى عليه خافية، ويرى كل ما عمله في الدنيا مكتوبًا في صحيفته، وقامت عليه

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٥٥٥-٥٥٦.

(٢) انظر: تأملات في سورة يس، حسن محمد باجودة، ص٨٧.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٨٧٧٨، كتاب الأهوال، ٤/ ٦٤٤.
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه»، ولم يتعقبه الذهبي.

الشهود ويرى أنه لا برهان له ولا حجة، يقر ويعترف بما جنى وأقترف كما حكى عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

٤. **الخصوم بين يدي رب العالمين.**

من مواقف الحشر والحساب تخاصم الكافرين مع شركائهم ومضليهم.

وقد جاءت آيات كريمات عديدة تبين هذا التخاصم منها ما جاء في تصوير التخاصم بين الأتباع مع قادتهم المضلين لهم في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ١٩ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ٢٠ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢١ ۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ٢٦ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ٢٨ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٖۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ٣٠ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الصافات: ١٩-٣٥].

آيات كريمات تصور تخاصم الكافرين المجرمين مع أسيادهم وقادتهم المضلين لهم، فيقول الضعفاء التابعون للقادة المضلين لهم: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾؛ لإضلالنا ومنعنا من سماع الحق واتباعه. فيرد المضلون على المستضعفين منكرين إضلالهم إياهم، ويقولون لهم: ﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٖۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ﴾، براءة منهم بعد ما رأوا الحق بأعينهم وعاينوا العذاب الواقع بهم جميعًا لا محالة. وقريب من هذه الآيات نقرأ قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وغيرها من الآيات الكريمات.

ومن التخاصم ما يحصل بين العابدين ومعبوداتهم عندما يجمعهم الله في مكان واحد، وقد جاء ذلك القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ١٧ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ﴾ [الفرقان: ١٧-١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩١-٩٩].

ومن التخاصم ما يحصل بين الكافرين وقرنائهم، وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٠-٢٩].

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٩].

ومن التخاصم ما يحصل في اليوم الآخر عندما تنقلب خلة الكافرين عداوة بينهم، أما المؤمنون فلا يصيبهم خوف ولا حزن حيث الجنة مأوى لهم ولأزواجهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦-٧٠].

المآل والمصير

جاءت مشاهد مآل ومصير الخلق في اليوم الآخر وجزائهم في كثيرٍ من آيات القرآن الكريم، ولو أردنا ذكرها مع بيانها لاحتجنا إلى مئات الصفحات، والناظر إليها يجد أغلبها -إن لم تكن جميعها- جاءت على سبيل التقابل بين مآل ومصير المؤمنين ومآل ومصير الكافرين؛ ليصور ما للمؤمنين من نعيمٍ في الجنان، وما للمجرمين من عذابٍ في النيران، وقد جاءت هذه المشاهد ترغيبًا وترهيبًا، ترغيبًا في الإيمان والعمل الصالح الموصل إلى الجنان، وترهيبًا من الكفر والمعاصي الموصل إلى النيران، وهذا التقابل مقصودٌ؛ إذ بضدها تتميز الأشياء، ليتميز البون الشاسع بين منازل المجرمين، ومراتب المؤمنين، معتمدة في أغلبها على التصوير الذي يعد «الأداة المفضلة لأسلوب القرآن»[1].

ويلاحظ على هذه المشاهد أن التقابل لم يأت على نمطٍ واحدٍ، بل جاء متنوعًا، فأحيانًا يكون التقابل ثلاثيًا بين السابقين وأصحاب اليمين والمجرمين نحو ما جاء في سورة الرحمن والواقعة، وتارةً يكون التقابل ثنائيًا بين المؤمنين والكافرين، وهذا التقابل الثنائي أكثر ذكرًا من الثلاثي وسيأتي تفصيله.

ومن أمثلة التقابل الثلاثي بين المؤمنين السابقين والمؤمنين من أصحاب اليمين والكافرين المجرمين قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا

(١) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب ص٣٦.

تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٤١-٧٨].

وفي موضعٍ آخر يطالعنا تقابلٌ ثلاثيٌّ آخر، ولكنه يصرح فيه بذكر أسماء أصحاب الجزاء، وذلك في موضعين من سورة الواقعة، في أولها وفي آخرها؛ ليتناسق البدء مع الختام في ذكر جزاء الناس في الآخرة.

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الواقعة: ٧-٥٦].

وفي نهاية تحليل الشواهد الثلاثية التقابل نجد أنه في سورة الرحمن كان التقابل الأساس بين السابقين وأصحاب اليمين كما مر، أما في سورة الواقعة فالتقابل يقع بين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال. هذا التقابل الذي يعمد إليه دائمًا؛ ليرى البون بين المصيرين.

وإذا انتقلنا إلى النوع الثاني من التقابل، وهو التقابل الثنائي نجده أكثر ورودًا من النوع الأول، وهذا التقابل الثنائي يكون متساويًا تقريبًا في الآيات بين الصنفين، وأحيانًا يكون التركيز على صنفٍ أكثر من الآخر كما سيأتي.

ومن أمثلة النوع الأول التقابلُ بين حال المؤمنين في الجنة وحال الكافرين في النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا

يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٢١-٣٦].

وفي موضعٍ آخر يطالعنا تقابلٌ بين وجوه الأشقياء ووجوه السعداء، وذلك في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١-١٦].

آياتٌ تعرض مقابلةً كاملة المشاهد، متناسقة الأجزاء بين جزاء الفريقين؛ إذ تقابل بين وجوه المجرمين من أصحاب النار وهي خاشعةٌ ذليلةٌ مع ذكر صنوف عذابهم المعنوي والحسي، ووجوه المتقين من أصحاب الجنة وهي ناعمةٌ سعيدةٌ مع ذكر صنوف جزائهم المعنوي والحسي، عن طريق التصوير الذي يعد «الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة»[1].

وجريًا على سنن القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، يذكر سبحانه حال الأتقياء السعداء من أهل الجنة بعد ذكر حال الأشقياء من أهل النار فيقول سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾.

وفي مواضع أخرى نجد تقابلًا ثنائيًا بين جزاء المؤمنين والكافرين في الآخرة، ولكنه لا يأتي متساويًا في الطول بينهما، فأحيانًا يكون مشهد جزاء الكافرين قصيرًا في مقابل جزاء المؤمنين الذي يطول، أو يكون مشهد جزاء المؤمنين أقصر من مشهد جزاء الكافرين، وكلٌّ موافقٌ للسياق الذي جاء فيه.

فمن النوع الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا

(١) مشاهد القيامة في القرآن ٦.

وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً
وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾
فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾
وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى
الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً
عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم
بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ
قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا
﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ
رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ
وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ
شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم
مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٤-٢٢].

فهذه الآيات يلاحظ عليها قصر مشهد جزاء الكافرين الذي جاء في آيةٍ واحدةٍ في مقابل مشهد جزاء المؤمنين الذي جاء طويلًا، وهذا يرجع إلى طبيعة السورة التي تركز على فضل الله تعالى ونعمه على خلقه، بالخلق والإيجاد والعلم والمعرفة وغيرها، فناسب طول جزاء المؤمنين وذكر نعيمهم لهذه النعم.

وإذا أخذنا شاهدًا على طول جزاء الكافرين وقصر جزاء المؤمنين، نجده كذلك مناسبًا للسياق الذي هو فيه نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾
لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ
كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ
لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا
يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ
فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ
فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا
وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٩-٤٥].

فآيات جزاء الكافرين أكثر من آيات جزاء المؤمنين، وجاء النظم بهذه الصورة؛ لأن سياق السورة لتهديد الكافرين ووعيدهم، لذا نجد أنه حتى جزاء المؤمنين ختم بـ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾. فالسياق سياق ترهيبٍ وتخويفٍ لذا ناسبه طول جزاء الكافرين.

موضوعات ذات صلة:

البعث، الثواب، الجزاء، الجنة، الحساب، القبر، النار